رواية

صالحة عبيد

# لعلّها مزحة

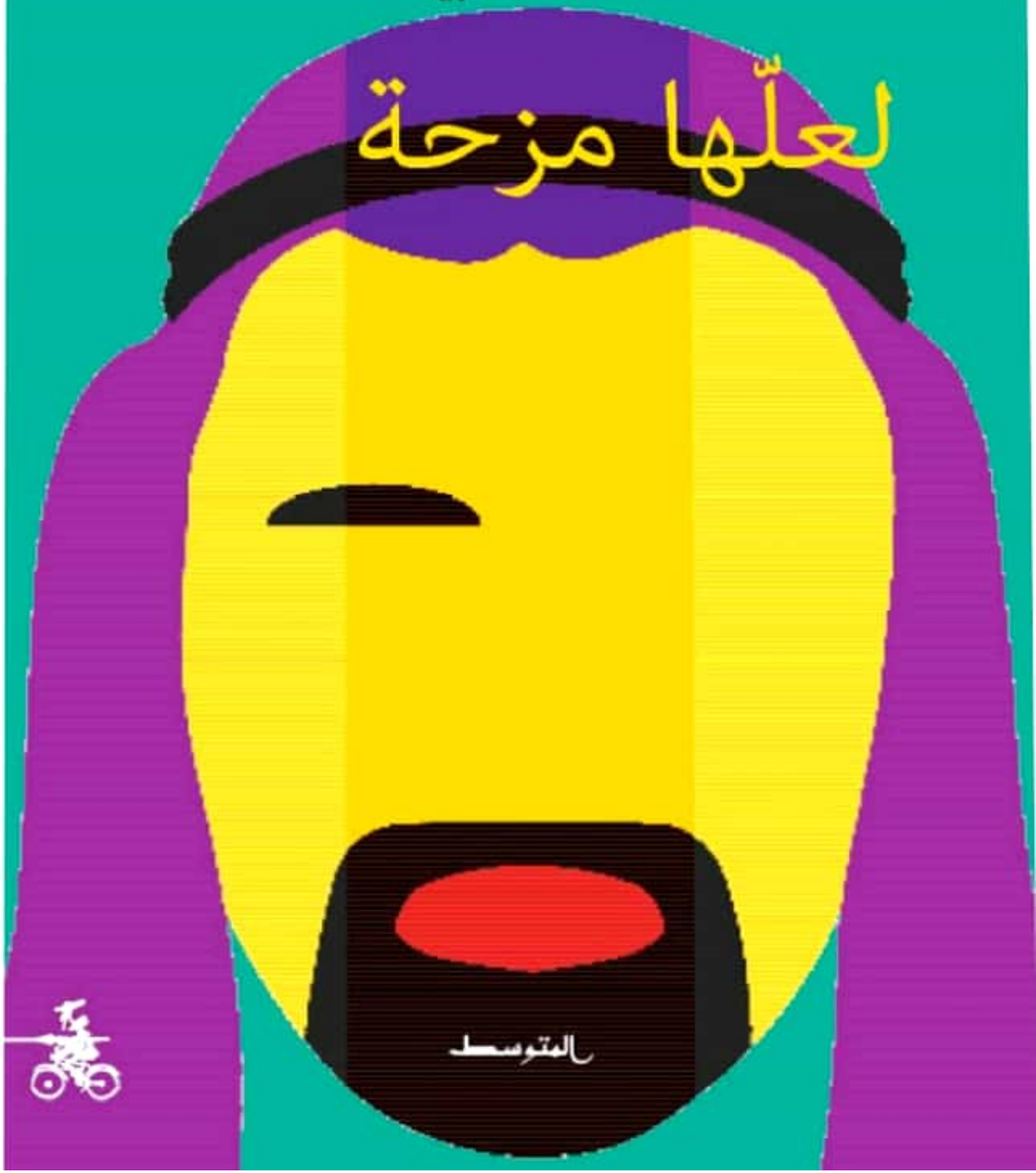

المتوسط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# لعلّها مزحة

## صالحة عبيد

المتوسط

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٨ منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار.- تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

La'alaha Mazha by "Salha Obeaid"

**Copyright © 2018 by Almutawassit Books.**

المؤلف: صالحة عبيد / عنوان الكتاب: لعلّها مزحة

الطبعة الأولى: ٢٠١٨.

تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-80-2

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia

170 دقيقة متبقية من «لعلها مزحة» 0%

العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

55204.

www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

المخيّلة ربّة الرواية، وهي هنا محاولةٌ لرتق مجموعة من الأفكار، في نسيج إنسانيّ واحد، وكل ما فيها ما عدا التواريخ وبعض الأحداث العامّة هي من افتعال مخيّلة متوثّبة، ورغبةٌ بابتكار ذاكرة موازية لما قد حدث.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب الخدش

## -١-

الشارقة ١٩٩٥

- يمكن راقدة؟

- أو يمكن ماتت؟

كانا يلعبان بالكلمة ككرة، يقذفانها بينهما، "موت"، يحاولان سكبها على الأماكن والأشياء والأشخاص، يرغبان بالتأقلم مع هذا الفعل الطارئ على فهمهما، الموت يعني أن الجسد يغيب، وتبقى الرائحة، الرائحة التي لا تزال مرتبطة بتلك الغرفة الصغيرة، غرفة الجدّة.

أيقظهما ماءٌ تدفّق فجأة، راحت هي تتأمّل انفلات الماء المباغت، فيما راح هو يقترب من "النافورة" بحذر العاشق الموشك على لمس وجه محبوبته للمرّة الأولى، لمس الماء، وعلى إثر اللمسة، هربت قطرة، وسقطت على وجهها، جفلت مرّة أخرى، أو جفلا معاً، ضحكا، "النافورة" حَيّة، ليست ميتة .. تفكّر، أو يفكّر، يفكّران معاً، تنسلّ هي من الفكرة المشتركة والضحكة، وتعود إلى تلك الليلة، ومركبة والدها البيضاء تتوقّف أمام المنزل، تذكر بوضوح نشيج أمّها، وهي تغادر المركبة، شكل الحزن على وجه والدها، شهقة المربّية التي كانت تمسك بيدها الصغيرة عند الباب، والعبارة الركيكة التي راحت تتضاعف في هواء المنزل، والحَيّ والعالم.

"يدّو(01) موت".

هل هذا يعني أن جدّتها قد جفّت؟!

## -٢-

الماءُ مرّة أخرى .. ماءٌ مالحٌ وهي تصرخ.

0%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- الملح سيقتلُ هذا الطفح (يقول والدها بنفاد صبر).

الكلمةُ الجديدةُ "قتل"، القتل والموت متلازمان، ولكنْ، هل هناك فرق بين العذب والمالح؟ بين القتل والموت؟ بين الطفح والجدّة؟

أَخرِجُوها من الماء، كانت تصرخ، كفّت، وراحت تتأمّل، بصمت، الصغار المنهمكين باللعب على الشاطئ، تتأوّه من ثِقَل يد المربّية التي راحت تجفّفها في شيء من الخشونة، هل كانت تريد أن تقتل الطفح أيضاً؟ لكن اسمه "جديري الماء"، كيف للماءِ أن يقتل الماء؟ .. تركتِ السؤال يمضي عندما رأتْهُ، ركضتْ نحوه قبل أن يحول بينهما جذع والدها الضخم، اقترب الأب ناهراً الصّبيّ، استكمالاً لما تبقّى من غضب الأمس، وهما يعودان بهما مبلّلَيْن وباكيَيْن، ككل مرّة يقرّران فيها أن يحملا سؤالهما ماضيَيْن نحو تلك التي تنامُ ولا تموت.

يبكي الصبي .. ويزداد الملح ..

يا تُرى ..!

ما الذي قد يقتلُهُ الدمعُ المالح؟

## -٣-

لكأننا تفتّحنا على حُلم ما .."مطر" وأنا، يسبقني هو بسنةٍ، تنقص شهراً واحداً طفلان في الثامنة يضيئهما الفضول .. وكل ما يجعل وجوه الأطفال تشعّ هو ذلك الفضول المتّقد .. السؤال الذي يطفو دائماً على الملامح قبل أن يتّخذ طريقه إلى الشَّفَتَيْن .. وقتها أخذنا نُطوّع العالم أمامنا كأُحجيّة، قوامها المغامرات الصغيرة التي تتوزّع بين الهنا والهناك .. هكذا استطعنا أن نعالج استفهاماتنا وحدنا .. فكان أن ولّد أحد تلك الاستفهامات .. مغامرة "النافورة" .. المتكرّرة كل صيف غالباً، في هذا الحَيّ المأهول بالسّكّان، منذ فترة يسيرة، حَيّ أوّل الحياة وأوّل المفاتيح، أتذكّر تفاصيله كلها .. إلا شيئاً واحداً، هو وجه الجدّة،



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"برقعها" بين يَدَي، وأفكّر في الوجوه التي غابت خلفه، وجوهٌ كثيرة .. لم يكن وجهُ جدّتي أوّلها، وليس آخرها أيضاً .. فيما الحَيّ المسفلت حديثاً في ذلك الوقت، يجعلني أرى أوّل عتبة للعالم على هيئة لوحة فلكلورية غريبة أيضاً، الإسفلت والبيوت المصطفّة على جانبَي الشارع وسيّدات الساحل على امتداد الجانبَيْن، ببراقعهنّ، وسجاجيدهنّ الملوّنة، و"فوالة" ما بعد الظهر .. كل واحدة منهنّ أمام منزلها، هي أمام منزلنا، وأنا بجانبها، أتذكّر الآن تفاصيلها كلها دون الوجه، رائحتها والثوب الملوّن وغطاء الرأس .. وصوتها الجهوري الزاعق بالصِّبْيَة الذين قذفوا بالكرة نحونا .. يوم صرختُ بكامل جبني، خوفاً كعادتي، إن لم يكن "مطر" موجوداً، كانت تهدّدهم دائماً بأنها ستمزّق لهم هذه الكرة بالسّكّين، وأظنّها فعلتْها مرّة.

كنتُ يومياً، أسأل أبي الصامت عادةً، عن معنى أن تجلس عجائز الحَيّ أمام بيوتهنّ بهذه الطريقة .. وكان بصبره يجيبني عن كونها عادة .. اليوم وأنا أسترجع تفاصيل بيوت الخمسينات والسّتّينيّات الميلادية .. المتاخمة للساحل، أفهم أنهنّ كنّ يرفضنَ الأسفلت والإسمنت الذي جاء لاحقاً على طريقتهنّ الخاصّة .. لقد كنّ يستجلبنَ البحر، الذي ابتعد كما ابتعد كل شيء يوم راحت المباني تتضخّم فجأة .. والأحياءُ تكثر .. حاجبةً عنهنّ وجه ذلك الأزرق.

تخلّى الحَيّ عن تلك العادة برحيل الجدّات تباعاً .. لكأن إحداهنّ فهمت أخيراً أن البحر لن يُستجلَب بهذه الطريقة، فكانت أوّل اليائسات وأوّل الغائبات .. وبغيابهنّ راحت الشوارع تضيق، لا أتخيّل أن ذلك الشارع الداخلي الضّيّق كان يتّسع لحافلة المدرسة الصفراء الضخمة التي كانت تقلّنا للمدرسة .. كان تفاعلنا مع العالم الخارجي يبدأ يومياً بصوت محرّك الحافلة الهادر، التي تسبقه طَرَقَات العمّ "مسلّم" والد "مطر" على باب بيتنا الأبيض .. وخطوات المربّية المسرعة بنا أنا و"مطر" نحو الباب .. تفتحه، لنستقبله بعيون تعاني خدر نعاس طفيف، وابتسامة، وليستقبلنا هو بالابتسامة ذاتها ونصف العين .. يقف معنا بانتظار



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحافلَتَيْن .. تصل حافلة مدرسة البنين أوّلاً، فيغادرنا "مطر" مبكّراً .. وأنتظر أنا مع "مسلّم" أمام الباب لنصف ساعة أخرى .. يشرب شايه الصباحي الذي تجلبه المربّية مع قطعة خبز"الخمير" الساخنة، جالساً على كرسي بلاستيكي فاتح .. نقف ساكنين .. إلا من السؤال اليومي عن حال الأب والأمّ والجدّة .. الذين كان قد التقاهم بالأمس كما سيلتقيهم في كل يوم .. تأتي الحافلة أخيراً .. ويبقى مشهد العين النصفية والابتسامة مودّعاً .. ذلك النصف .. الذي لطالما جعلتْني أسأل والدي:

- ما بال العمّ "مسلّم"، يا أبي؟

- ما باله؟

- لماذا عينه الأخرى دائماً مغلقة؟

- لأنه لا يرى بهذه العين، إنها مصابة.

- لماذا؟

- مشيئة الرّبّ.

- هل كان هكذا طول الوقت منذ كان صغيراً؟

- لا.

- إذنْ، كيف غابت عينُهُ الأخرى؟

كان أبي يترك السؤال معلّقاً، أظنّه كان يحاول أن يتحاشى الكثير من التفاصيل غير الضرورية بالنسبة إليه، والتي سأوقد منها الأسئلة تباعاً، لكنني أذكر جيّداً أنهم، وكلّما ذكروا هذه العين المغلقة بينهم ككبار، كنتُ أصيخ السمع، لأفهم، حتّى سمعتُهم يقولون "لقد كان هناك يوم حدث الأمر" .. استخدمتُ بدوري العبارة لاحقاً عندما كان بعض الصبية يسخرون من "مطر" .. "اليتيم ولد العوّر(02)" .. يومها استجمَعَت فتاة الحذر والخوف رباطة جأشها، لتصرخ بهم وهي تتقدّم "مطر" الصامت في حرج وذهول بعد أن كانت اختفت خلفه طويلاً، تستمع بوجل



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لسخريتهم اللاذعة.

- أيّها الأوغاد .. أنتم لا تعرفون شيئاً .. لقد كان "مسلّم"، هناك يوم حدث الأمر .. يوم ذهبت عينُهُ الأخرى.

- وما هو الأمر؟

جفلتُ، في الحقيقة، لم أكن أعرف ما هو ذلك الأمر، ظننتُ أن هذه العبارة هي الإجابة الكاملة، ولم أنتبه إلا عندما أُطلق أحدُ الصبية السؤال بعد وجوم قصير، سببه ظهور تلك الفتاة الحنطية الضئيلة .. صاحبة العينَيْن الشاردَتَيْن .. والتي تسير غالباً بجانب "مطر" أو خلفه كشيء يشبه الظّلّ، صارخةً بهم عن ذلك الأمر الذي ذهب بعين "مسلّم".

.

01) يدو: الجدّة بالمفردة الإماراتية.

02) العوّر: الأعور بالمفردة الإماراتية.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب الشّقّ

نحن، خالد بن محمّد القاسمي، حاكم الشارقة وتوابعها، وافقْنا على تأسيس وتنظيم قوّة شرطة الشارقة، وعلى مسوّدة المرسوم المقترح المؤرّخة في يوليو ١٩٦٧م، وسيصبح مرسوم الشرطة نافذ المفعول بدءاً من تاريخه.

التوقيع: خالد بن محمّد القاسمي

حاكم الشارقة وتوابعها

سبتمبر، ١٩٦٧ م(03)

الشارقة ١٩٦٧

يشدّ الرجل الذي قارب الثلاثين عاماً قامته، يفرد جذعه الذي اكتسى بتلك الحلّة ترابية اللون .. يعدّل من وضع القبّعة السوداء التي تحمل شعار إمارة الشارقة، وهو يكاد يزهو بطوله الذي يفوق أقرانه هنا، لقد أنهى تدريباته اللازمة .. أخيراً هو في مكانه المناسب، على ما يبدو، يتأمّل الواجهة الضخمة البيضاء والزرقاء أمامه، وهو يبدأ يومه الأوّل ضمن قوّة شرطة الشارقة، يتابع بعض أعمال الصيانة التي تقوم بإجراء آخر التغييرات، ليستقبلهم حصن الشارقة القديم، كمركز لقوّتهم الشرطية الجديدة، البوّابة الكبيرة لا تزالُ على حالها، والعلم بلونَيْه الأبيض الذي يتوسّطه مستطيل أحمر، يزيّن الجانبَيْن، ويرفّ هناك في العُلُوّ أيضاً. فيما يعبر الناس حول المكان في شيء من الهيبة والتّردّد، منصرفين لشؤونهم بين البحر المحاذي واليابسة التي تبدو لكأنها قد خرجت منه كخطيئة، كبقعة مَنسيّة هي وأهلها المتعبة سحناتهم جرّاء الجوع والشَّظَف .. يتذكّر أنه رأى منذ زمن طويل هنا، "مرشد" الحرامي، وهو يُساقُ إلى "المحلوسة"(04)، رأى الروع في نظرته دون أن ينساها .. بقي يهابُ هذا المكان .. دون أن يعرف أنه قد ينتهي إليه يوماً .. هو هذا اليوم. انتهت أزمنة الغوص بشكل قاطع منذ سنوات، وحلّ محلّها زمان التنقيب عن النفط، حيث البحث عن الأبيض اللامع من اللؤلؤ أصبح بحثاً مستميتاً



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن نقيضه الداكن، وبالنسبة إليه .. لم يكن الأمر ليختلف كثيراً .. فقد كان ليكون من خلالها .. ودائما في أسفل السّلّم، لكنه اليوم لم يعد يشعر بوجود ذلك الشيء القاهر الذي يحدّد مصيره المرتبط بالماء، يقول لنفسه بأنه سيألف مكانه الجديد هذا ويحبّه، لو أن فقط رائحة البحر القريب تختفي من هنا .. كم يكره البحرا .. لطالما كرهه، البحر الذي مزّق القلوب، وزرع الانتظارات مراراً دون أن يحصدها، هل يعلم أحدٌ حقيقة أن تتكوّم الانتظارات تلو الانتظارات دون حصاد، أي قنابل موقوتة كانت تترك على الشاطئ؟ ماطل روحه، سايرهم في فكرة أن البحر للرزق والسفر والمغامرة، وأنه مصنع الرجال الحقيقي، وحاول أن يعالج مراراً تلك اللوعة التي انبثقت في روحه قبل سنوات. يومها كان في السابعة، وعمّه ابناً للعشرين، فيما كان والده قد أتمّ الثلاثين لتوّه .. عشر سنوات تفصل بين الابن البِكْر والولد الأخير، عشر سنوات وصرخة .. تلك التي أطلقتْها جدّته لأبيه، وهي تحتضن عمّه المنهار أمامها بكاءً، كانت المرّة الأولى التي يشاهد فيها رجلاً يبكي، وكان قد بدأ يتعلم لتوّه معنى أن الرجال لا يبكون، وأن دموعهم مقدّسة، لكأن جزءاً من أرواحهم سينسكب معها، أو أن أعمارهم ستقصر أو.... ..

- هيه، أنتَ .. لماذا لا تردّ؟

- آسف، سيّدي.

- قالها وانتصب أمام محدّثه كرمح.

- ما اسمكَ؟

- "مسلّم ولد إبراهيم" سيّدي.

- ستكون دائماً متواجداً هنا .. هذه هي نقطتكَ، لا تتحرّك بدون أوامر .. أنتَ لا ترى ولا تسمع ولا تتكلّم بدون أوامر .. أوامري أنا .. مفهوم؟

- عُلِم، سيّدي.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تركـه ومضـى، تأمّلـه "مسـلّم" بصمت بعد أن أدّى لـه التّحيّة العسكرية مودّعاً بصرامة، بدأ شعور المكان المناسب بالتضعضع، تماماً كما بقي ذاك العويل يزعزع روحه لسنوات طويلة .. عويل جدّته وهي تتفجّع على بِكْرها الذي قتله أخوه .. ثمّ جاء ليبكيه في أحضانها، "حسنا" هي لم تقلْ ذلك أبداً، لم يقلْ ذلك أيّ أحدٍ منهم، جميعهم في المنزل كانوا يقولون .. قتله "النوخذه" يوم أصرّ على أن يكون "عمّه" الذي يعرف أهل "السيفة" كلهم ضعف جسده، الذي وُلد معه، وتعايش به حتّى تلك اللحظة، يوم أصرّ النوخذه المتسلّط على أن يكون "هلال" "سيبا" لأخيه، وهو في ذلك يُطبّق عُرف قافلته في أن يكون دائماً "سيب" الغوّاص أحد أقربائـه، حـتّى يكـون حـذراً جدّاً لأيّ حركة قد يُبديها الغوّاص، فيبـادر بسـحبه، العُرف الذي لطالما رأى "مسلّم" أنه عُرفٌ ماكر، لكأن الأمر مجرّد تبرئة ذمّة هشّ أمام أهل الغوّاص .. إذ حصل ما حصل، كأن يعجز "السيب" عمّه الذي لا تنطبق عليه أهمّ قواعد قوّة جسد "السيب" عن مَدّ اليد الأولى القابضة على الحبل، والتي ستسحب الغوّاص من غرقه الوشيك، لتنفجر رئتا والده تحت ضغط الأعماق، انفجارٌ مكتومٌ غير بيّنِ الشظايا، وبالنسبة إليه، لم يكن أيّ من هذه التفاصيل مهمّاً، لقد قتل عمُّه والدَه، هذا ما فهمه من كل ذلك الصخب، قتلَه ليأخذ من والده ومنه أمّه "خديّة" التي ما إن انقضت عدّتها حتّى تزوّجها ذلك الشّابّ العشريني الذي استفاق سريعاً من الفاجعة، كيف يمكن لصبي في السابعة أن يشهد زفاف "أمّهِ"؟ .. ولاحقاً كيف كان له أن يفهم أن له أخوة، هم أخوتهُ وأبناء عمّه في الوقت نفسه .. كانت الأسئلة تكبر أمامه يوميـاً .. تسبقه فـي الاستقامة .. تخـرج من تعثّرها، وتركض .. يحاول أن يُدركها .. علّه يظفر بالإجابات، لكنهُ بقي عاجزاً عن ذلك .. لاهثاً دائماً .. حتّى استسلم، فبدأ بابتكار إجاباته الخاصّة، "قتل والدُه عمَّه، ليخطف منه أمّه" .. أمّهُ التي كانت تحبّ عمّه أكثـر مـن أبيـه .. فَمَنْ الـذي ليس لهُ أن يحبّ "هلال"؟ .. الشّابّ الهزيل الذي لم تسلب سمرته الداكنه وبنيته الهشّة من وسامته شيئاً، لطـالما نجـح فـي صـرف نظـر الآخرين عن ذلك بظرافتـه الآسـرة، وصـوته الجـهوري الـذي يمـلأ أيّ مجلـس يعمّه صـخباً



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وضحكاً، وبملامح وجهه المنمنمة التي كانت تجعل مَنْ يتأمّله دائماً يشعر أنه كان قد وُلد بلونٍ آخر غير لونهِ هذا، يذكر "مسلّم" الآن فيما يذكر، أن لم يرَ والدته تضحك من قلبها إلا مع "هلال" .. في الوقت الذي كانت تقابل صمت والده "إبراهيم" الودود .. بسكون متحفّظ .. كره ضحكتها كثيراً بعد ذلك، كراهية امتدّت لتشمل تفاصيلها كلها منذ الليلة التي قالت له فيها إنه بات رجلاً الآن، وعليه أن ينام في الغرفة المجاورة مع "سلمى" الجدّة، ليحميها، ويقوم على رعايتها، فيما سيعمل "عمّهُ" من الآن وصاعدا على حمايتها هي .. بقي يتساءل بعدها لماذا لا يحمي كلّ واحدٍ منهما أمّه بنفسه؟ .. سدّد لاحقاً سؤاله للجدّة في ضيق .. التي اكتفت بضحكة مقتضبة، وبسؤال مقابل، دفعت به سؤاله:

- ألا ترغب في أن ترعى جدّتكَ، يا "مسلّم"؟

تأفّف ليلتها، ونام، وبعد هذه الليلة بما يقارب الحول الكامل، كسر قداسة دموع الرجال، ونام باكياً في صمت .. أو فيما اعتقد أنه صمتٌ خذله فيه نشيجه المكتوم، قبل أن تحتضنه جدّته التي تلمّست طريقها إليه بعد أن خفّ بصرها في تواتر سريع خلال تلك السنة حتّى لم يكد يبقى فيه ما يدرك الأشكال والأشياء، احتضنت النشيج وضوء دمعته وهي تمسح رأسه، وتبسمل .. حتّى نام حانقاً وخائفاً .. نام حانقاً على ذلك الجسد الضئيل الذي انبثق فجأة اليوم بعد أن تكوّر بطن أمّه خلال الشهور الماضية، لتُنجب له ذلك الأخ الذي انتظره طويلاً قبل هذا الحول .. وبدلاً من أن تُنجب له الأخ الشقيق من والده "إبراهيم"، جاءت بهذا الكائن .. ابن القاتل، ونام خائفاً .. على عمره الذي قصر، لأنهُ كرجل .. سمح لنفسه بأن يبكي.

فيما أعقب تلك الليلة، بقي "مسلّم" يتابع ذلك الكائن في محاولة مستميتة لأن يحافظ على ذلك الحنق والحقد اللّذَيْن شعر بهما تجاهه يوم حملوه إليه بعد عودته من الدرس، قائلين أن لهُ أخاً وُلدَ اليوم، لكنه، كلّما تأمّل ملامح وجهه التي كلّما كبر كبرت معه، تذكّره بملامح والده "إبراهيم" النافرة، وكلّما مدّ له يده الصغيرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جداً ملاعباً أو مناغياً في همهمات طفولية غريبة، شعر بذلك الحقد يخفت حتّى يكاد يتلاشى .. كيف له أن يحبّ ابن هذا القاتل؟ .. ذلك المجرم الذي لم ينلْ جزاؤه الذي يستحقّه بعد، بل أصبح كل مَنْ يراه يتلطّف معهُ في شفقه، "هلال" المسكين الذي تجبّر عليه وعلى "إبراهيم النوخذه "راشد" والتاجر "غيث" في آخر أيّام الغوص بعد كساد سوق اللؤلؤ الطبيعي .. رافضاً إعتاق قافلة غوصه، ليذهبوا باحثين عن رزقهم بين المنقّبين عن الذهب الأسود .. "هلال" الذي تزوّج زوجة أخيه مُجبَراً، ليحافظ على الأسرة، وليرعاها .. "هلال" الذي سرق منه "خديّة" .. واسعة العينَيْن، الرّيّانة الجميلة .. بسمرتها الباهتة، ورائحتها التي لطالما كانت مشبَعةً بنثار الدقيق، "هلال" الذي سرق منه أوّل منطقة آمنة في حياته، يوم نُفي بسببه من غرفته الأثيره إلى غرفة مجاورة في بيت معروش، .. "هلال" الذي سيسرق منه لاحقاً "نجلاء" .. و"هلال" الذي لم يفهم كيف شُفي من الذنب بتلك السرعة .. شعر "مسلّم" بأنه فيما عدا ذلك الصغير النابت في المنزل، يبغضهم جميعاً .. حتّى جدّته التي سيصرخ بها بعد سنوات..: كيف سامحتِ هذا القاتل؟! .. لتجيبه في ذهول مَنْ أدرك الحقيقة للمرّة الأولى:

- "آخ من ظهري، وآخ من بطني".

خرج يومها مع الغروب من المنزل ساخطاً على خنوع أمّه، وبلادة الجدّة، وقعت عيناه على "هلال" راجعاً في حبور مع "محمّد" أحد وجهاء الحَيّ، "لا بدّ أن الأمر تمّ" قال لنفسه .. "راحت نجلاء" .. "آخ، بس آخ" .. عكس طريقه .. مشى سريعاً .. ثمّ شعر بأنه يهرول .. ركض مغالباً البكاء .. خائفاً من أن تتسرّب روحه مع الدمع .. ركض صارخاً .. تعثّر .. سقط .. تعفّر .. لهث .. انتصب .. عاد ليستأنف ركضه، فإذا بيدٍ ثقيلة تسحبه من ياقة ثوبه المتّسخ.

- على رسلكِ، يا صبيّ .. لمَ هذا الصخب كله؟

كانت النبرة ساخرة كعادتها .. فأدرك أنها يدُ "خاطر".



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنا لستُ صبياً .. اتركني، يا "خاطر".

مالت شفتا "خاطر" عن ابتسامة ساخرة، كشفت جزءاً من أسنانه المصفرّة جرّاء التدخين، قبل أن يُصعِّد نبرته التّهكّميّة قائلاً:

- بل صبيّ .. صارخ وبَكّاء.

انتبـه "مسـلّم" هنـا إلـى الـدموع التـي كـانت قـد انسـابت علـى الوجنَتَيْن .. فشهق .. شعر أن روحه قد تبعثرت على غفلة منه .. جفل "خاطر" أمام تلك الشهقة ..

- ما الأمر؟

- الرجال لا يبكون ..

عادت روح "خاطر" التّهكّميّة .. فاستأنف حديثه:

- ومَنْ قال بأنكَ قد أصبحتَ رجلاً؟!

قطب "مسلّم" حاجبَيْه .. وهمّ بأن يجيب "خاطر"، هو يعرفُ جيّداً بأنـه أصـبح رجـلاً منذ المرّة الأولى التي لمح فيها تلك الغمّازة الشـهية، التـي تكشـف عنـها "نجـلاء" دائمـاً كلّمـا كـانت فـي قمّة بهجتها، وقمّة بهجتها كانت تلتقي دائماً مع أوج حبوره، هو الذي لاحظ تردّدها شبه اليومي على منزلهم، كلّما اقترب الغروب، مرّة بحاجيّاتٍ لهم من والدتها، ومرّةً لتأخذ حاجياتٍ من الجدّة للوالدة التي كانت تحضر شيئاً من وراء الكواليس، أحبّ الغمّازة أوّلاً قبل كل شيء، وقاوم رغبة عارمة في أن يلمسها، ثمّ أحبّ الضحكة، فالصوت، فالجسد، أرادها كرجل له وحده، وراحت تتفتّح هي أمامه كجواب حقيقي في وسط كل ما حوله من ألغاز، حتّى كان اليوم الذي أدرك فيه سرّ هذه الزيارات المتكرّرة في ذلك الوقت، موعد اقتراب وصول "هلال" .. "نجلاء" التي كان جوابها الأوّل والوحيد هو "هلال" قبل أن يمضي في رحلة الغوص المشؤومة تلك، ليعود قاتلاً، ويجدها تتجهّز للزواج من ابن العمّ الذي كان رفيقاً لهم على تلك الرحلة، زواجٌ لم يدمْ سوى موسم شتاءٍ واحد، قبل أن يغادر ابن العمّ في رحلة غوصٍ، لا يعود منها، وتعود لها



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هي الروح في أملها المتجدّد بـ "هلال" كجواب، بعد أن أضحى لا يغادر اليابسة، والأمّ التي خافت على ابنتها مصير التّرمّل الأزلي، ساعدتها في الإمساك بذلك الجواب .. "هلال" الذي لم يكن له أن ينسى .. تلك الغمّازة الأولى التي كشفت له أيضاً معنى أن يكون رجلاً .. تبّاً لـ "هلال" .. أراد أن يشتمه بصوتٍ عال، لكنه أطرق برأسه وهو يتأفّف بضيق طالباً من "خاطر" أن يتركه لحال سبيله، كان متعجّباً الآن من كونه مصادفاً دائماً لـ "خاطر" في طُرُقات الحَيّ المتربة، لكأنه ملازم أزلي للشارع، واستغرب أن أحداً من الحَيّ لم يستغرب هذا الصبي الرفيع .. ترابيُ السمرة .. الذي بدا وكأنه ظهر في حَيّهم فجأة .. دون أصل واضح .. ولا أب أو أمّ .. حتّى اسمه جاء غريباً في أوّل الأمر .. هو الذي ظهر كفكرة مباغتة بينهم قبل أن يألفوا وجودها، سأل "مسلّم" جدّته ذات يوم عن أب وأمّ "خاطر" فقالت إنهما ماتا في طاعون البحرَيْن .. وإن "خاطر" نزح مع النازحين للشارقة .. وحيداً إلا من صك عتق قديم، قال إنه كان ما حصل عليه من والده الذي تحصّل عليه من جدّه، وقد كانت هذه الحكاية واحدة من حكايات كثيرة، تتناول أصل "خاطر" ومنبته دون شيء راسخ يؤكّد ذلك .. سأل "مسلّم" "خاطر" عن ذلك الصّكّ ومعناه ذات يوم، فتهرّب منه "خاطر" الذي كلّما باغتْه "مسلّم" بسؤال لا يشتهيه ابتسم ساخراً، أو ضحك بتهكّم قبل أن يجيب " دَعْ ما يَريبكَ إلا ما لا يَريبكَ "، لم يفهم "مسلّم" وهو صبيّ الثالثة عشرة لماذا يتهكّم "خاطر" وهو يكرّر هذا العبارة أمام كل حَيْرَة يقع بها "مسلّم"، أو أهل الحَيّ حول "خاطر" الذي قارب عامه الخامس والعشرين، لكنه بقي صبياً غريباً في أعينهم .. فهو الرجل الصبي بسمرة شاحبة وشَعْرٍ أكرت، وعينين غريبتي اللون .. لا تشبه العيون الداكنة كلها هنا .. فلا هما زرقاوان ولا خضروان ولا رماديّتان .. ويؤكّد كل مَنْ عرفوا "خاطر" عن قرب أنهم في كل مرّة رأوا لوناً لعينَيْه لا يشبه الآخر .. حتّى شاع أنه نبتةٌ من جنّيّة أزلية، عشقت ذات مرّة مَنْ يشبههم .. في حين مال الآخرون الأكثر واقعية للتهامس حول فكرة أن "خاطر" هو نتيجة لذلك الامتزاج المحرَّم بين عِرْقَيْن .. فلا هو من هنا، ولا هو من هناك .. يقول بعضهم أيضاً إنه تاه عن



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والده الذي جاء به مع أحد التّجّار الرّحّل في سوق العرصة. كثيراً ما كان يحدث أن يغيب "خاطر" أحياناً، ويعود بأشياء لم تكن لتخطر على بال أحد، ولا يعرف من أين يأتي بها، كهذا الغليون الذي يمجّ منه التبغ بشكل دائم .. الأمر الذي أضفى عليه هيئته طابعاً كريكاتورياً غريباً .. غليون فاخر مذهّب بنقوش غريبة الكلمات، لشابّ رثّ الثياب طيني الملامح، لا شيء فيه متناسق، سأل "مسلّم" أمّه ذات يوم أن يدعو "خاطر" لتناول الغداء معهم، فكان أن نهرتْه، قبل أن تعقّب بأن الجنّيّة لن تترك ابنها جائعاً، وأنه لا حاجة له بغدائهم الذي لن يساوي شيئاً أمام ما قد تُطعمه إيّاها أمّه الجنّيّة .. يومها وعندما باح "مسلّم" لـ "خاطر" بما قالتْه له والدته متسائلاً عن مكان أمّه الفعلي .. أعاد عليه "خاطر" العبارة ذاتها "دعْ ما يَريبكَ إلى ما لا يَريبكَ "، العبارة التي استغرق "مسلّم" وقتاً قبل أن يدرك أنها أحد الأحاديث الشريفة الحسنة.

- هيه "مسلّم" .. دعنا نذهب للبحر.

- لا.

- غريب .. مع أن اتّجاه ركضكَ كان نحوه.

أُسقط من يد "مسلّم"، الذي ترك "خاطر" يقوده إلى الشاطئ، حيث بدا لكأن التفاصيل استلقت بتعب نهاية اليوم أمام البحر.

- صبيّ صغير بعينَيْن حلوَتَيْن.

- كفّ عن هذا.

تخفت نبرة "خاطر" التّهكّميّة أحياناً، لتشعّ بشيء آخر مُربِك ومتّقد، كان يخيف "مسلّماً"، فيغادره، وهو يحلف أن لا عودة له لصحبة هذا الـ "خاطر" قبل أن يعود ليصادفه في طريقه، كما هي عادته.

- "ليش تكره هلال؟".

- "هلال" قاتل .. قتل أبي، وسرق أمّي، والآن سرق حبيبتي.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضحك "خاطر" .. قبل أن يستطرد:

- "انت مينون .. "نجلاء" أكبر منك .. و"هلال" ما قتل أبوك .. إنته اللي بغيته يكون القاتل لنك ما قدرت تفهم".

- أنا يآل، وعمري ١٥ سنة.

- عيّل، اتعلّم ..

- أنا أعرف أقرأ القرآن، والقراية، وأعرف الحساب.

- أقصد تعلّم الحياة، يا ولد.

صمت "خاطر" لبرهة قبل أن يلتفت نحو "مسلّم" وعيناه غريبتا اللون تشعّان من جديد.

- هيه "مسلّم"..، ما رأيكَ بأن نبتعد قليلاً عن الحَيّ؟

نظر إليه "مسلّم" بتوجّس .. لكنْ، ترك لخطوته أن تنجرف وراء خطوة "خاطر" المجنونة الراكضة التي كانت تدعوه إلى الولوج إلى عالم لم يسبق له أن عرف مثله .. يذكر أنهما مشيا طويلاً .. طويلاً جدّاً حتّى كادت خطوة "مسلّم" أن تخذله من التعب .. وأن البحر ابتعد .. الأمر الذي جعله رغم التعب المتفاقم يشعر للمرّة الأولى أن هذا الخليج الممتدّ لم يعد يحاصره .. وأنه قد ينجح فعلاً في ردمه .. معنوياً على الأقلّ .. وصلا أخيراً الى ذلك الحصن المسوّر .. ببرج غريب يطلّ منه، "المحطّة" .. هكذا سمّاها "خاطر" .. وشرح له بشكل سريع أن أسطولاً من السلاح الجوّيّ الملكي البريطاني يستقرّ هنا، وأن الطائرات تُقلِع من هذا المكان بالمرتحلين المدنيّيْن الآيبين والذاهبين .. هذا "مطار".

لم يفهم "مسلّم" معنى المطار، ولا ما الذي تعنيه كلمة طائرة حتّى رأى تلك الأجنحة الضخمة، وارتعد من ذلك الطائر الحديدي الضخم .. تخيّله صقراً، يعرف أن الصقور تصطاد الحيوانات، وتأكل منها، فكيف بصقرٍ بهذا الحجم؟! كيف له أن يتعامل مع جوعه؟! .. لا شكّ أن الحيوانات تلك لم تكن لتكفيه .. أتراه يستطيع أن يأكلهم؟!.. هرول أمامه "خاطر" فجأة، فتبعه خوفاً لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فضولاً .. وتجمّد وهو يستمع إليه مميّزاً بين أنواع هذه الكائنات بين ١G-Akvw Avro Anson " التي التحقت بالخدمة منذ مدّة يسيرة على مشارف الخمسينيات الميلادية كواحدة من طائرات طيران الخليج، وبين الطائرات المقاتلة التابعة للوحدات الجوّيّة ٦ و٨ و٢٤٩ التي اكتفت بأن تكون من نوعَيّ venom"" و"vampire"، قال له إن كلمة "فامباير" تعني مصّاص الدماء، ولمّا صرخ، طمأنه بأن هذا المصّاص هو شيء يقابل "أمّ الدويس" و"حمارة القايلة" التي يُفترَض أنه تجاوز خوفه من ظهورهما، بِعَدِّ أنه أصبح رجلاً .. قال له وهما يلقيان التّحيّة على رجل أشقر، يسجّل أرقاماً غريبة في دفتر كبير بأن جنّيّة الطقس وشوشت هذا الرجل بما هو كائنٌ غداً من حال الريح والمطر وخلافهما، كان عالماً مدهشاً بالنسبة إلى "مسلّم"، لاحظ أن فيه للكثير ممّنْ رآهم هناك ذات لون عينَي "خاطر" .. أو بالأحرى لكل شخص من الذين أبصرهم لوناً من ألوان عينَي "خاطر" المتعدّدة، وكان من المستغرب بالنسبة إليه أيضاً أن الجميع كانوا يتعاملون مع "خاطر" بِعَدِّه شخصاً مألوفاً، بالنسبة إليهم.

انتهى ذلك العالم السِّحْري هناك بنافذة سِحْرية شديدة الغرابة بالنسبة "لمسلّم" الصبي، بشرٌ ضخام الحجم شديدي الشحوب يتحرّكون من خلال تلك النافذة .. ليُبلغه "خاطر" وهو يجاوره في الجلوس على تلك العلبة المعدنية التي كانت قد رفعتْهم عن الأرض مسافة بسيطة في صفّ من المتشابهات من العلب، أن هذه "سيلمه" وأنه لا وجود لمثلها في أيّ مكان قريب .. حتّى في "الكويت" أو "البحرين" .. عندها التفت "مسلّم" نحو "خاطر" قائلاً دون أن تفارق ملامحه تلك الدهشة الطفولية الأخّاذة متسائلاً:

- هذا بيت أمّكَ الجنّيّة؟

ذُهل "خاطر" من سؤال "مسلّم"، قبل أن يضحك صاخباً بطريقة لم يسبقْ للصبي أن شاهدها .. ضحكةٌ أعقبها بـ:

- دع ما يَريبكَ إلى ما لا يَريبك.

عاد "مسلّم" يومها صامتاً إلى المنزل، كانت أمّه وكذلك جدّته على



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حافّة الانهيار انتظاراً، فيما بقي "هلال" في خلفية الصورة بدون أيّ تعقيب حول مكان الصبي أو حاله، بعد هذه الليلة، لم تعد "نجلاء" أجمل بنات الحَيّ، رأى فيها بعد أن زُفّت إلى "هلال" في وقت لاحق من الشهر مجرّد سيّدة أخرى، تنضمّ لسيّدات هذا البيت، وتذكّر بشكل مشوّش، زياراتها المتكرّرة لبيتهم خلال العامَيْن الماضيَيْن، بل فيما سبق ذلك، رأى الآن بوضوح أنه لا يستطيع أن يتذكّر صورة "نجلاء" بدون أن يكون "هلال" موجوداً .. هذه الصبية الحلوة .. كانت مجرّد نجمة أخرى من الدائرات في مجرّد جاذبية "هلال" غير المنطقية .. بعدها بعام وفيما كان يستعدّ "مسلّم" لدخول عامه السادس عشر .. وُلدت له أخت جديدة من "خديّة"، كان اسمها "مريم"، وولدت "نجلاء" صبياً لـ "هلال"، كان أن سمّاه "إبراهيم"، إلى جانب "مفتاح" الذي يصبح عمره في هذا العام ستّ سنوات .. لم تعد أمّه تضحك ملء قلبها أمام "هلال" .. فيما راحت ضحكة "نجلاء" التي كانت تأتي دائماً بدون صوت تكبّر .. كانت غمّازة خدّها الأيمن هي التي تشعّ كلّما ضحكت، لكأنها تعوّض عن صوت الضحكة، فكان أن رأى "مسلّم" سرّ تولُّع "هلال" بها، وانصرافه بقلبه كُلّيّاً تجاهها عن أمّه .. صورةٌ مُربِكة أعادت له التوازن الذي اعتقد قبل عامٍ أنه كان قد فَقَدَه إلى الأبد .. ورغم أنه كان لا يزال يمقت "هلال" في داخله، إلا أنه خرج معه أخيراً إلى السوق معاوِناً إيّاه في تأمين ما قد يصلب هذا البيت على عوده، في زمن الجوع وشظف العيش .. والبحث المحموم عن ذلك السائل النفطي الداكن دون أيّ نتائج تكاد تُذكَر.

في هذا العام أيضاً ماتت جدّته، واختفى "خاطر" كما ظهر، لم يعد يأتي كشبح الصدفة في الطُّرُقات، وكحكايات ظهوره الكثيرة .. دارت حكايات أكثر حول غيابه .. قال بعضهم إنهم شاهدوه في الزرقة الممتدّة بين ساحل الشارقة وجزيرة (أبو موسى) ينقّب مع المنقّبين، لاحقاً قال آخرون إنه قد وصلهم بأنه يحارب في البريمي عام ١٩٥٩ مع المتحاربين من القبائل ضدّ المملكة المتّحدة، وأنه رحل مع المُرحّلين إلى السعودية، فيما قد وصل لبعضهم أنه كان الواشي الذي مكّن القوّات البريطانية من النيل

148 دقيقة متبقية من ... 13%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من القبائل، كما سيصل لـ "مسلّم" بعد ذلك بسنوات طويلة .. بأن "خاطر" كان أحد الذين أُصيبوا في أوّل موقعة عند احتلال جزيرة (أبو موسى) عام ١٩٧١ إلى جانب الشهيد الأوّل "سالم سهيل خميس" .. فيما وصله من مصدر آخر أنه كان في إحدى تلك الطائرات التي كانت تُلقي بعض المنشورات الفارسية على الجزيرة نهار الاحتلال ذاته .. لطالما بقي "خاطر" يظهر في الحكايات بوجهَيْن .. نقيضَيْن .. تماماً كتناقض كل شيء فيه، ومع الوقت .. تحوّل إلى ما يشبه الأسطورة المقتضبة للحَيّ الساحلي .. تلك التي يصنعها أهل الحَيّ ببراعة أمام مباغتات الخوف والأسئلة المتّقدة على أوجها، كأحد تبعات مجاورة هذا الأزرق المترامي أمامهم.

03) تأسيس وتنظيم قوّة شرطة الشارقة / الشيخ الدكتور سلطان بن محمّد القاسمي .. ص ٨.

04) المحلوسة: السجن الذي اتّخذ موضعه في قصر الحصن في الشارقة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب التّهتّك

## -١-

الشارقة ١٩٩٨

"راقد صَحّ؟ "

بقيا يحدّقان طويلاً في ذلك الجذع الطويل المسجّى أمامها بسكون .. يهمسان سؤالهما حول ماهية الحالة التي هو فيها .. كانت الغرفة باردة جدّاً، نصف مضاءة كعينَي "مسلّم" .. والمطر على أوجه في ديسمبر (كانون الأوّل) .. يحبّ "مطر" هذا الفصل الشتوي .. ينتشي بفكرة أن يلتقي بما سُمّي عليه .. يشعر بالبشارة والجذل الطفولي .. يتقدّم هو الآن، ليجلس بمحاذاة رأس والده الذي استلقى على مرتبة خفيفة .. حاسر الرأس .. مواجهاً بنومه الباب الذي تركه مُوارِباً، ليتسلّلا منه هو و"ميرة" .. يحسّ بالغربة والغرابة معاً .. فعلى الرغم من أن النائم أمامه هو والده إلا أنه يشعر أنه لم يسبق له أن رآه حاسر الرأس .. بهذا القميص القطني الأبيض و"الوزار" .. يتأمّل ملامحه المستكينة أمامه .. جبهته العريضة .. شفتاه الغليظتان .. أنفه الذي يبدأ عريضاً قبل أن يستدقّ .. سمرته .. شاربه الرمادي الكَثّ .. رأسه الأملس المستدير الخالي من الشَّعْر .. يتأمّل المرتبة الخفيفة والملاءة التي أبعدها "مسلّم" عن جسده، لكأنه لا يشعر بهذا البرد كله.. لا يستطيع أن يألف هذه الغرفة التي قضى فيها أربعين يوماً فقط .. هي الفترة المَنسيّة من ذاكرته .. قبل أن تغيب أمّه مع الحمّى، كما قالوا له .. يا تُرى هل كان ليشعر بالغرابة أمام وجهها أيضاً؟ .. هل كان ليؤخذَ بعيداً عنها؟ .. هل كان ليذهب، لتتشكّل ذاكرته هناك .. في البيت المجاور .. حيث "فاطمة" التي عرضت على "مسلّم" أن ترعى هذا الصغير كحفيد لها بعد أن يئست من قدرة زوجة ابنها على الإنجاب .. تماماً كما يئست من زواج ابنها بالأخرى التي قد تُنجب لها الحفيد المنتظَر؟! لم يكن الأمر ليكون مستغرَباً وسط مجتمع صغير بسيط التعقيد، كمجتمع ذلك الوقت .. حيث كانت



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجاورة تتجاوز مفهومها القائم على التّراصّ الجغرافي، لقد أفردت المِحَن الصغيرة والكبيرة التي كانت تعصف ببيوت الساحل في أزمنة الغوص، شكلاً إنسانياً عميقاً من الشراكة، استمرّ إلى ما بعد هذه الأزمنة التي كان أهلها يحاولون أن يتمسّكوا بذاكرة وتفاصيل، تتسرّب أسرع فأسرع، الجيرة هي شيء أقرب للرابط الأسري المحكم هنا، كان ذلك قبل أن تتحوّل إلى قيودٍ من التّحكّم الخانق ومخاوف القيل والقال وأشكال أخرى لا مبرّرة من التمييز .. وُلد "مطر" في ديسمبر (كانون الأوّل) مع الغيث، فكان هذا اسمه .. ووُلدت "ميرة" بعده بفارق السنة التي تنقص شهراً واحداً، لتتفتح ذاكرتها على "مطر"، الذي كان في وعيها الأوّل .. أخاها الأكبر .. تماماً كما تشكّلت هي في وعيه كأخت صغرى، تواجدت لتصرف عنه أوقات المَلَل والوحدة .. قبل أن يدركا معاً، شيئاً فشيئاً .. أن هذا الرجل بنصف عين في المنزل المجاور هو "والد" "مطر" .. وليس هذا الرجل الآخر، وأنهما جاران .. هو و"ميرة" .. وليسا شقيقَيْن .. وأن هاتَيْن السّيّدتَيْن ليستا أمّ "مطر" وجدّته رغم أنه بقي يناديهما بالأمّ والجدّة .. هذا إلى جانب ذلك الفارق الجوهري الذي جعل العائلتَيْن رغم تلك التوائم الأقرب إلى الانصهار، شيئاً يرفض الاندماج .. كالماء والزيت.

تتأمّل "ميرة" حَيْرة "مطر"، تفكّر هي في والدته أيضاً .. تذكر أنها سمعت أمّها تقول لأبيها إن "مسلّم" قتلها، لكنها لم تُخبر "مطر" بذلك أبداً، هل هو سرّ آخر يخفيه هذا الرجل إلى جانب هذه العيون؟ .. راحت الآن تحدّق بهما .. بالأولى المغمضة بوداعة والأخرى التي تبدو مقسومة إلى نصفَيْن .. بشقَّيْن: أحدهما أفقي تماماً كالأخرى المغلقة، والآخر طوليّ .. يبدأ من تحت الحاجب بقليل، لينتهي عند ما تحت الجفن السفلي .. "ما هو الأمر" الذي جعل هذا الوجه يصبحُ مروّعاً هكذا؟ .. قالت لنفسها .. رفعت أناملها الصغيرة، وأخذت تقرّبها من الندبة بحذر.

ماذا تفعلان؟

تجمّدت يدها.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جلسا متقابلَيْن .. في محاولة لأن يكتما تلك الضحكة التي توشك على أن تفلت منهما، ضحكة تشي بسرّهما الصغير الذي خبّآه سويّاً .. تحلّق البقية حولهما بانتظار الإشارة اليومية للبدء، أذان المغرب .. الذي ستبدأ من بعده الشفاه تتحرّك بهمهمات خفيفة في ترديدها لأدعية الإفطار الرمضانية، قبل أن تباشر في تناول طعام الإفطار، كانا يحاكيان الكبار في الهمهمة، يردّدان ما اتّفق أن يطرأ على بالهما لحظتها، كونهما كانا لا يزالان عاجزَيْن عن حفظ الأدعية المتعارفة، تبعا الهمهمة بمحاولة محاكاة الكبار فيما يفعلون .. ٣ تمرات، فكأس ماء .. لتبدأ الأيادي تمتدّ بعدها إلى الأطباق المتنوّعة الموجودة أمامهما بشكل خاطف .. قبل أن يرفع والدها و"مسلّم" يداهما في الوقت ذاته تقريباً، مع نداء الإقامة الذي يعلن عن صلاة المغرب المتوجّب وقتها، ينسحب "مطر" بعد ذلك بدقائق أمام نظرة نارية خاطفة، يوجّهها له "مسلّم" بعينه السليمة .. يقفز سريعاً .. تتابعهم مبتسمة .. هي تعرف جيّداً أن تلكّؤ "مطر" اليومي على الإفطار هو مجرّد استكمال لدور الصبيّ الصائم .. بعد أن نجح معها طوال اليوم في اقتناص لحظات الغفلة من والدتها والمربّية، ليتناولا شيئاً من هنا أو هناك.

رمضان ديسمبر (كانون الأوّل) بارد ومقتضب، يعبر نهاره رغم قصره برتابة على صغيرَيْن، لم يألفا معنى الصيام بعد .. ممّا يتركهما معلّقَيْن بانتظاراتهما .. يتسلّلان بعد عودتهما من المدرسة بين الأب و"مسلّم" والأمّ والمربّية .. يدخلان غرفة الجدّة المغلقة منذ وفاتها يحاولان تتبّع شيء من حكاياتها التي تركتها قبيل الرحيل .. أثواب ملوّنة ورائحة عطر قديمة و"براقع" وخيوط .. قبل أن يفتّشا عن غنائم الطعام اليومية قبل ذهابهما لتوزيع ما اتّفق من أطباق اليوم على الجيران.

يعودان، فيجدان "مسلّم" في طريقه لمنزلها .. يُهدِّئان من وقع الخطوة وجذل سرّهما الصغير، وهما يتبعانه إلى حيث ستتحلّق هذه العائلة الصغيرة على المائدة الأرضية .. تكتشف هي بعد مدّة،



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنها تبقى تراقب ما يتناوله "مسلّم"، لم يكن يُكمل تمراته الثلاث، كما كان يأمرهما الوالد .. وكان يكتفي بنصف كأس ماء .. وثلاث ملاعق من "الهريس" يومياً .. تسمع والدها يهمس لـ "مسلّم" متسائلاً عن عدم شعوره بالعطش .. وتذكّر أن "مسلّم" يومها أجاب بعبارة غامضة عن بحثه عن الماء الذي يروي عطش الروح .. لاحقاً ستتوجّه هي بالسؤال لأمّها:

هل هناك من ماءٍ آخر، غير الذي يعرفونه، قد يروي عطش الروح؟

## -٣-

لمستُ تلك العين .. فسقط القلب .. قلبي الذي تلقّفه "مسلّم" يومها، فيما رحت أقلّب عينَي بين يَدَيْه وقلبي والفراغ الغريب في صدري.

لمس هو القلب، فصنع فيه الندبة ذاتها التي تتوسّط العين المصابة، قبل أن تشفى العين في غمرة الهلع الذي اعتراني، وهو يعيد القلب إلى فراغه، مع تلك الندبة .. حدّق بي بعدها مبتسماً، كان جميلاً بشكل مُربِك، لم أكن خائفة، لكني رحتُ أصرخ.

استيقظتُ باحثةً عن "مطر" على السرير الصغير الآخر المجاور لسريري، لأُطلعه على الحلم الغريب، فلم أجده .. حَيْرة خائفة أخرى انتابتْني، قبل أن أدرك .. أن رمضان الشتوي ذاك، كان آخر عهدي بـ "مطر" .. شيءُ ما خاطف وسريع مرّ بنا في شهر واحد، هو في أوّله وأنا في آخره، كبر صوته، وأصبح رجلاً كما يقال، ونزفتُ أنا دون أن أموت، فكان أن قال والدي إن الوقت قد حان .. وتوجّب على كلَيْنا أن يبتر تفاصيله المشتركة مع الآخر بتراً، مخدّته الأثيرة في السرير الذي جاور سريري، دوره الذي يسبقني إليه دائماً في استحمام الصباح، السباق اليومي الصغير باتّجاه المطبخ، والإفطار والباب وتفاصيل كثيرة غيرها، لقد بدأتُ أشعر بأن كمّيّة الماء والزيت، راحت تزداد، فإذا باستحالة اندماجهما تتّضح أكثر فأكثر.

أمّا "مسلّم"، فقد تكثّفت بسطوة حضوره أمامي، يمارس الطقوس



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذاتها، بفارق صغير .. فـ "مطر" الذي عاد إلى غرفته الغريبة مع والده، أصبح يستيقظ معه، يتناولان طعام الإفطار الذي بدأت المربّية بالاعتياد على إيصاله لهما قبل أن أستيقظ وحدي، وهي في طريقها للعودة، تراني وقد أيقظتُ والدتي التي تجهز سريعاً ما يجب أن أرتديه، هذه هي السنة الأولى التي أرتدي فيها غطاء الرأس الأبيض في المدرسة، فيما بقي أمره معلّقاً بعد وقت المدرسة إلى حين، بين إصرار والدتي على "الربّما "وحماسة والدي أمام الفرض، كنتُ أستمع إلى حوارهما اليومي الذي كان يمرّ حانقاً وخافتاً أمامي، وأشياء أخرى عن "مطر"، وضرورة أن يبتعد الآن قبل أن يقع المحظور، أصل للباب أخيراً، لأجد "مسلّماً" يودّع "مطر" الذي لمحت وجهه المغادر سريعاً، لم يتغيّر شيء، لا شيء في نظرته الواسعة المتسائلة التي تشبه ما أراه في عينَي، كلّما نظرتُ إلى المرآة، خلا وجهه من أيّ شيء غريب، فيما عدا ذلك الشارب الخفيف الذي نبت فوق الشَّفَتَيْن الرفيعَتَيْن، حاولتُ أن أخرج في ذلك اليوم تحديداً أسرع من المعتاد، علّني أستطيع اللحاق بـ "مطر" قبل أن تغادر به الحافلة، شعرتُ بأنني كان يجب أن أُطلعه على ذلك الحلم، أو الكابوس بالأحرى، لكن "مسلّم" الذي شعرتُ يومها بأنه كان قد استعجل تفاصيله أيضاً، باغتَني بوداعه السريع لـ "مطر"، قبل أن يسحب كرسيه جالساً إلى جوار الباب، منتظراً كأس الشاي الذي غابت عنه خبزة "الخمير" .. بقيتُ أتأمّله في حذر ذلك الصباح، محاولة أن أمدّ يدي لتلمس تلك الندبة، بقيتُ عاجزة .. لم أحرّك ساكناً .. إلا أن صوتي المرتبك همس:

- عمّي "مسلّم".

- نعم.

- هل حقّاً قتلتَ أمّ "مطر"؟

- ماذا؟

- أمّي تقول بأنكَ قتلتَها.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل حقّاً فعلتَ؟

- ربّما فعلتُ ..

- اطمئنّ، لن أخبر "مطر".

- شكرا لكِ ..

- عمّي "مسلّم".

- نعم، يا "ميرة".

- أظنّ أيضاً .. أنني أستطيع أن أعيدَ لكَ عينكَ الأخرى.

- كيف؟

- لا أعلم بعد، لكنني رأيتُ ذلك بالأمس.

- أين رأيتِهِ؟

جاءت الحافلة لتبتر الحديث، غادرتُ وأنا أترك نظرتي الكاملة، تودّع نصف النظرة التي قابلني بها "مسلّم".



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب الرماد

## (صفحة مقتضبة من ذاكرة "هلال" وسيّدات النار)

## الشارقة ١٩٢٠ / ١٩٦٩

## -١-

يمتدّ بحيّز رفيع، يلتهم الفراغ، يتلوّى، يستقرّ في الرئة .. يزاحم الغيظ .. يجعله يسعل بنشوة .. الدخان، الذي سيمتنّ له دائماً، يشعر بأنه يمنحه قوّته، الامتلاء الذي يستر هزال جسده، يحبسه الآن في صدره، وعلى عكس الجميع، وبدلاً من أن يشعر بالضيق، كان يشعر بالسعة بأن رئتَيْه اللّتَيْن كانتا دائماً أضعف وأضيق من احتمال ضغط الأعماق البحرية التي تمّ إبعاده عنها، قد أخذتا بالتّمدّد، لتسعا العالم.

يتذكّر غيظه الآن من "مسلّم"، الذي ينضج يوماً يعد آخر، ليذكّره بالصفعة الأولى و"إبراهيم". يومها كان قد استسلم لإغراء أدوات الغوص الخاصّة بالأب، والتي خبّأتها والدتهما بعيداً، لكأنها بذلك تستطيع أن تنتصر على الغياب، لم يعد "جابر" يستخدم الأدوات جميعها منذ أن تراجع بصره، وأوكلت إليه مهمّة أن يصبح "سيب" السفينة، كان في الأمر تحضير لتقاعده، لذلك فإنه كان قد بدأ باصطحاب "إبراهيم" معه في رحلات الغياب، "إبراهيم" بجسده المتين الصلب الذي يجعل مَنْ يحاول أن يخمّن عمره يعتقد بأنه يتجاوز عمر السابعة عشرة بكثير، فيما بقي هو موعوداً بأن يتجاوز السابعة، ليشبّ جسده، كان هزاله يُقلِق الأب الذي لم يتحرّج من سؤال الأمّ عن هذا الإرث الهزيل الذي لا يشبه أيّاً من جانبَي العائلة، فوالد "سلمى" الأمّ وأخوتها وجميع المحيطين بها كانوا من أشهر عوائل الغوص هنا، وفي محاولتها للتّهرّب تُعالج "سلمى" السؤال بالتسويف:

- لا يزال صغيراً، يا "بو إبراهيم" ما إن يبلغ حتّى يشتدّ العود ويطول.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- "بنشوف".

كان دائماً ما يكون هذا أحد أوّل الأحاديث الروتينية التي تنفلت ما إن يعود الأب من غيابه، وبعد أن يرمقه بنظرة تأمّل طويلة، يتظاهر "هلال" بأنه لا ينتبه لها فيما يتناولون وجبتهم الأولى بعد الموسم الذي في حال كان عامراً، فإنه يكون كثير السمك من عطايا ما بعد اللؤلؤ، كما هو أمامهم الآن.

- "وين تودي الأكل" .. تأمّل "إبراهيم" كلّما اشتدّ عوده أكثر، قلّ طعامه .. وأنا أكاد أجدكَ تصغر أكثر في كل مرّة، كنتُ آمل أن أجدكَ قد كبرتَ، لأعدّكَ للموسم القادم.

ودون أن يرفع "هلال" رأسه، يشعر بحرارة النظرات المنطلقة تجاهه، الأب بسؤاله الناري المنبثق عن النظرة و"إبراهيم" بنظرته المتفوّقة دائماً. ثمّ الأمّ بحرجها الحارّ من هذا السؤال المزمن الذي تدرك جيّداً هدف "جابر" منه .. الزواج الثاني، الذي كلّما زادت غشاوة بصره، زاد تصميمه عليه، بحجّة أنه لا يريد أبداً أن ينقطع نسله القوي عن البحر، وهم بدون هذا البحر لا هوية لهم.

يومها أخرج "هلال" بعض الأدوات، وعزم على أن يباشر التدريب بنفسه، سرق "الفطام" و"المثقال"، وانطلق ناحية "الساحل، تجاهل الصبية الذين تبعوه فضولاً، واندفع بكُلّيّته للماء .. ابتعد وهو يحاول أن يُثبت الفطام على أنفه الدقيق بعكس والده وشقيقه، لكنه راح ينزلق دون ثبات، لكأنه عاجز عن إيجاد ما يُثبته، شعر بالملوحة تقتحمه،تجاهلها، وضع الفطام بداخل المثقال، وحاول أن يجدّف بذراعه الحُرّة على أمل أن يصمد، سيتدرّب على السباحة على الأقلّ، راح يتخيّل أنه يعود مع الغروب إلى "جابر"، ليُطلعه على انتصاره، ليؤكّد له جاهزيّته لأن يغادر اليابسة، لكن الملوحة راحت تتكثّف، والجزء الظاهر من اليابسة أمامه راح يقلّ، يذكر بضبابية أن المثقال غاص بعيداً محرّراً ذراعه الأيسر، وأنه حاول أن ينتشله، يذكر الصبية وهم يتقافزون بهلع بعيداً، ويحاول مَنْ أدرك مبادئ السباحة منهم الاقتراب منه، لكنه شعر بأنهم يراوحون في دائرة عبثية، يقتربون فيبتعد، راح صدره



المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يضيق .. ملحاً وهلعاً، صرخ وبكى، ثمّ غاب، استسلم لخدر راح يسحبه، كان الضيق آخذاً في التبدّد، قد لا تكون الزرقة بالأسفل بمثل هذا السوء، لعلّها لا تكون كذلك، قد يقوده هذا الغرق إلى كنز لؤلؤ قريب، معجزة قد يكون هو سببها، لكن يداً قوية بترت المعجزة .. يد "إبراهيم" الذي اقتيد من قيلولته الساكنة بعد أن هدر أحد الصبية بالأمر في منتصف بيتهم المعروش، كان لا يزال مخدّراً، وتلك اليد تحمله إلى البيت، غائباً واليد القوية تسلّمه إلى تلك اليد الخشنة التي تقارب في خشونتها ذلك الحبل الذي التفّ حول هزاله، بعيداً وقشور جذع النخلة الوحيدة في الدار تحتكّ بجذعه المبلّل، مشدوهاً والصفعة الحارّة تندلق من اليد الخشنة على وجهه، مرتاعاً و"سلمى" تتوسّل تلك اليد لتكفّ، مختنقاً وهو يشعر بخشونة الصفعة تهبط على عنقه، لتلفّ حولها كالحبال المجدولة حول جذعَيْهما معاً، هو والنخلة.

بقي في ليلته تلك مربوطاً .. كانت برودة سهيل تشتدّ ..

فراح يئنّ برداً وقهراً .. اقترب "إبراهيم" منه بالماء بعد أن تأكّد من نوم "جابر" .. قال له أن يكفّ عن البكاء كي لا يجفّ، فيموت .. قرّب الماء من الشَّفَتَيْن اليابسَتَيْن، فتلقّتاه بارتواء مسافر في الربع الخالي، قبل أن تتصلّبا فجأة، وتقذفا بالماء على وجه "إبراهيم".

- أنتَ السبب!

يذكر ليلتها كيف صرخ بوجه "إبراهيم" المبلّل بالماء والبُصاق، ويذكر كيف حاول "إبراهيم" أن يتجاوز الأمر وهو يدير له ظهره ماضياً قبل أن يرتدّ إليه بصفعة حارّة، أشعلت هزاله الذي كان يرتجف قبل قليل من البرد .. تركه بعدها يُكمل البكاء، حتّى عاد إليه الخدر، كان جفناه يطبقان بإعياء رغم مقاومته، فهم عندها أنها النهاية، لقد جفّ .. هو في طريقه الآن إلى الموت.

لكن صراخ "نجلاء" المجنون أيقظه فزعاً في الصباح، كان نائماً فقط، لم يجفّ، فظنّ أن في الأمر خرافة ما، لولا أنه كان شاهداً على حادثة جفاف كاملة بعد خمس سنوات من ليلة الجذع ..



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

و"جابر" على فراش مرضه الأخير بعد أن عمي تماماً .. يتحسّس وجهه الدقيق بشعيرات رجولته الآخذة بالتكاثر، وهو يبكي بحسرة معتذراً عن كل شيء، يبكي حتّى جفَ، واستكانت حركته تماماً.

صار ملازِماً لـ "إبراهيم" على السفينة في المواسم التي تلت موت الأب، متحمّلاً السخرية من هزاله في بادئ الأمر، قبل أن يكتشف طريقة تبدّد العيون عن هذا الضعف، اكتشف النكتة، والدخان، كان يدخّن، ويتّسع صدره، ثمّ ينطلق جاعلاً من كل شيء وكل شخص حوله مادّة للتّندّر، حتّى"النوخذة" في غيابه طبعاً، ممّا منحه شعبية ومكانة، إلى أن جاءت تلك الليلة التي وشى به أحد الغوّاصين للنوخذة، وهو يخبره عن نكتة بذيئة، أطلقها "هلال" .. يومها جاء النوخذة هادراً تجاه ذلك الكائن الهامشي على السفينه آمراً بأن يكون "سيب" غوص الغد، "سيب" شقيقه "إبراهيم" الذي كلّما ازداد عمراً، ازداد صلابة، وازداد ثقلاً على عكس أقرانه، كان أحد آخر أبناء تلك السلالة الموشكة عى الانقراض تماماً كهذه المهنة التي يتحسّس أفرادها ضياعهم الوشيك مع تراجع الطلب وضعف السفن وإشاعات الذهب الأسود الذي يتطلّب غوصاً آخراً، لا يلائمهم .. لا يعرفه إلا أصحاب البشرة البيضاء التي تستعر تحت الشمس كاشفة عن حمرة مخيفة .. يتذكّر "هلال" الآن وهو يسعل أكثر فأكثر تلك الليلة، كيف أنه لم ينم وهو يتأمّل وجه "إبراهيم" النائم" بجواره بوداعة، كانت روحه تترنّح مع الماء وعليه، ماذا كانت لتقول له "سلمى" في مأزقه هذا الآن؟

وفي الغد .. باغته "جابر" .. لقد عاد من الماء كمخلوق أسطوري هادر، لم يكن يشبه الأعمى الذي بكى معتذراً حتّى انتهى ماء روحه، لقد رآه يمدّ ذراعاه من الأعماق، لتقبض على كفَّيْه اللّتَيْن كانتا تُمسكان بالحبل الذي يصل ما بينه وبين "إبراهيم" في غوصه، ذراعان مجدولتان تتسلّقان ذراعَيْه الهزيلتَيْن في حركة سريعة، لم يفهم في البدء مراد "جابر" بعينَيْه المشتعلَتَيْن، أراد أن يسأله عمّا يغضبه الآن، عمّا يريد أن يفعله وهو يتسلّقه، لكنه قبل أن يلهج بالسؤال، فهم الأمر، وهو يشعر بالحبال تلتفّ حول عنقه،



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتهزّه محاولة أن تسلبه الروح، شعر بأن الدخان كله الذي كان مخزّناً في صدره قد راح يتبخّر، وعاوده شعور الضيق المرعب، أفلت حبل "إبراهيم"، وراح يحاول أن يخلّص عنقه، ثمّ صرخ صرخة هادرة .. استكان بعدها كل شيء.

في ليلة الكارثة، وهو مربوط إلى عمود السارية كعقاب على قَتْله لأخيه .. رأى "إبراهيم" آخر يخرج من جسد "إبراهيم" الهامد، المنفجر الرئتَيْن والدامي الأذنَيْن مقترباً منه بالماء، لم يكن يشعر بالعطش هذه المرّة، لكنه شرب تعبيراً عن الندم، ثمّ راح يبكي.

- لم أكن نائماً، يا "إبراهيم"، صدِّقني، أنا لم أغفل عنكَ، لقد كان أبي.

استدار "إبراهيم" دون أن يعلّق، لكنه كما في مرّة الصفعة من سنوات، ارتدّ وهوى على وجهه بصفعة هادرة، جعلت جسده يرتجف، شعر بروحه تتفكّك بدلاً من أن تجفّ.

ولمّا كانت اليابسة، هرول إلى "سلمى"، ارتمى عليها وهو يشهق بحكاية الأب قبل أن تسمع عن النائم الغافل الذي قتل "إبراهيم"، بكيا معاً، قبل أن يسقط أسيراً للحمّى مدّة سبعة أيّامٍ وستّ ليال، صدّقتْهُ الأمّ، وتقبّلت حكاية البحّارة على مضض، لم يجفّ، ولم تجفّ، لكنه أصبح ينسى كثيراً، وأخذ حجمها هي بالتّقلّص يوماً بعد الآخر.

أصبح "إبراهيم" يزوره في المنام بعدها كلعنة، رآه مرّات هادراً، ومرّة مباركاً زواجه من "خديّة"، وفي مرّاته الأخيرة بات يأتيه معاتِباً على نيّة زواجه من "نجلاء"، ثمّ سائلاً عن مسلّم"، يكثر في سؤاله عن هذا الصغير العنيد، منذ تلك الليلة التي غاب فيها طويلاً، وعاد صامتاً، خالياً من الدهشة المعتادة لأقرانه. كان الأمر يبدو لكأن روح "إبراهيم" الصامتة قد تلبّسته، لم يره أبداً خارج المساحة المهادنة التي لم يعرف منها شعوره تجاهه بالضبط، كان هذا الأمر يغيظه.

ثمّ جاء يوم النار، وأصبح ذلك الوجه الذي يحمل تلك الإدانة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبطّنة يخيفه أكثر من أيّ شيء آخر.

## -٢-

في صلاتها وهي صغيرة، دعت ألا يكون لها رجلٌ إلا على اليابسة، لم تكن تريدُ أن تصاب بالعمى، كانت " خديّة" تراقب عينَي والدها كلّما عاد من سفر البحر بقلق، وهي تشعر بأنه يراها في كل مرّة بشكل أقلّ، وكانت في قرارة نفسها، تعرف أن الأمر آتٍ لا محالة، العمى الذي سيأخذ بصر الأب أوّلاً، ثمّ الأمّ، لقد راقبت التّحوّل منذ كانت في السابعة من عمرها إلى اليوم، يضعف بصر الغوّاص، يُصاب بالعمى ويموت، يُورِثُ الضعف للزوجة، تُصاب بالعمى وتموت .. كان إرثاً ينتقل بشكلٍ أفقي، أوّلاً، ثمّ عمودي، وهو يُورِثُ الأبناء مهنةَ الغوص، يذهبون إلى البحر، يصيبهم الضعف، ثمّ العمى، وهكذا، لم تعرف كيف لم يدرك أحدٌ الأمر بعد، وحدهنّ النسوة اللاتي تزوّجنَ برجال اليابسة، بقينَ يحافظنَ على أبصارهنّ.

في صلاتها، وهي في عامها الخامس عشر، ابتهلت، ألا يعود "إبراهيم" من الرحلة، ألا يحصل هذا الزفاف الحتمي، أن تذهب ابنة الغوّاص إلى غوّاص آخر، أرادت أن تكسر السلسلة، أن تنجو من اللعنة.

لمّا تأخّر عَمَى "سلمى"، ارتاحت، كانت لا تزال تتمتّع ببصرٍ حادّ، تراقب كل شيء كما كانت دائماً، وتوجّه كل شيء، بصرها الذي لم يُضعفه غياب "جابر" ولا موت "إبراهيم" البكْر، تُتمتم "إبراهيم"، تتذكّر الآن جسده المنتفخ الذي عادوا به من البحر، تتذكّر الغثيان، والنواح، تحاول أن تتذكّر صوته وتفشل، الصمت كان دائماً أكبر، صمته وصمتها، وعيناه اللتان لا تتذكّر شكلهما، كانت تكسر نظرتها أمامه .. تحاول أن تتّقي العمى.

عندما قالت لها "سلمى" إن "هلال" سيكون لها زوجاً، ما إن تغادر شهور العدّة، حتّى استراحت، كانت تعلم أن "هلال" لن يعود للماء، ليس بعد ما أُشيع حول الضعف والقتل، ولأنها كانت تحبّ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عينَيْها اللَّتَيْن كانتا أكثر ما يميّزها بين أخواتها، عينان واسعتان لا تُنسيان، لم تشعر بالغرابة، ابتهجت، شعرت بأن اللعنة كُسرت أخيراً، يوم عقد قرانها ضحكت من قلبها، كما لم تفعل من قبل، حتّى إنها لم تتحرّج من ذلك أمام "مسلّم" الصغير، الذي كان مشدوهاً كأنه يرى ضحكتها الكاملة للمرّة الأولى .. كانت تحبّ بصرها، ولا تريد أن تُصاب بالعمى، كانت تحبّ عينَيْها، وتحبّ أن تُبصر وجه "مسلّم" الصغير يكبر ويكتمل .. ثمّ شقيقه، وجه أخيه الذي جاء بعده بسنة.

عندما تزوّج "هلال" للمرّة الثانية، بهتت الضحكة، راحت تحلم كثيراً بـ "إبراهيم"، يقتلع إحدى عينَيْه، ويضعها بين يَدَيْها، يقول بصوتٍ رخيم لا تعرف إن كان يشبه صوته الحقيقي الذي لا تتذكّره، بأن هذه العين "لمسلّم". كانت تستيقظ وهي تشعر بأنها خرجت للتوّ من أعماق البحر الذي لم تعرف يوماً ما هو شعور الغرق فيه، تستيقظ هلعة، وتهرع إلى "مسلّم" لتتأكّد من سلامة عينَيْه قبل أن تعود لتنام، تضاعف هلع الكوابيس عندما ضعف بصر "سلمى" أخيراً، ثمّ عميت، لا فكاك إذاً، راعها أن تعود لتلتصق بها لعنة "إبراهيم"، بعد أن تخلّى عنها "هلال".

ثمّ كانت النار .. كان الاختناق والعطش، كان الدمع والعمى، دخلتْها النار من البؤبؤ، مزّقت كل ما في طريقها، وأشعلت القلب، كان قلبها يحترق حرفياً، ذاب الجلد وهو يكشف عن قلبٍ يتلظّى، أخذت بعدها تشمّ رائحة جسدها وهو يُشوَى، تسمع الصراخ وتركض مشتعلة محاولةً أن تصل إلى الصغار، لم تعد تُميّز، لم تعد ترى، هو العمى أخيراً، لقد جاءت اللعنة، تسمع صوت "إبراهيم" الرخيم، كما في الحلم يناديها، رفضت أن تنقاد لجهة الصوت، تخبّطت وهي تفتّش بجسدها المشتعل عن "هلال"، "هلال" سيُعيد إليها بصرها المحترق، لأنه رجل اليابسة، لكنْ، أين "هلال"؟

## -٣-

في بلادٍ تكاد تكون مجرّدة من كل شيء إلا البحر، لم تكن الغلبة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلا للماء المالح، يوزّع المصائر، ويقرّر سنوات القحط والوفرة، وهي كانت تشعر بالجوع، جوعٌ مستدام ولا تشبع، تشعر بالعطش ولا ترتوي، " نجلاء" المنساقة إلى قَدَر النقص الأزلي، رغم أنها الوحيدة من بنات الحَيّ التي جاءت بغمّازة زائدة.

أحبّت "هلال"، لأنه كان يذكّرها بجوعها الدائم والعطش، كان يذكّرها بنقصها، تشعر بأنهما يتوحّدان معاً فيه، في الهزال والجوع والعطش، لذلك فإنهما مهما أحبّا، لن يكتمل الحبّ، سيبقى دائماً محافظاً على نقضه الآمن، مشتعلاً، لا يقترب من الرماد وشرّها دون أن يصل إلى التخمة.

قال لها "هلال"، "غمّازتكِ تجعلني أكتمل"، فضحكت، كانت المرّة الأولى التي تصل فيها إلى شعور كامل، شعور غامرٍ بالغرور والرضا، تضحك وتتّسع الغمازة، ويزدرد "هلال" ريقه.

لمّا دخلتْ إلى البيت المعروش بطبق "الجامي" المتعارف عليه في وقت عودة الرجال، ورأت "هلال" مربوطاً إلى الشجرة، شعرت بأن غمّازتها تصغر، صرخت، بقيت تصرخ في هلع حتّى جاءت "سلمى" يتبعها "جابر"، ثمّ "إبراهيم" .. ظنّتْه ميتاً،كشف الثلاثةُ سرّهما.

في الثالثة عشرة من عمرها وأمّها تُبلغها بأنها ستغادر في عامها القادم إلى بيت زوجها ابن العمّ الغوّاص بدوره، والذي لا يشبه "هلال" في شيء، صلّتْ للمرّة الأولى في حياتها، "يا ربّ، خذْ من عمره، وأعطِ هلال" وقد كان لها الأمر الذي أرادت.

في الرابعة عشرة عندما عادوا بجسد "إبراهيم" المنفجر الرئَتَيْن، وعندما كانت تسمع عن الحمّى التي اشتعل بها جسد "هلال" الهزيل بعد ليال قضاها مربوطاً إلى السارية، يشاركها عطشها والجوع، صلّتْ للمرّة الثانية في حياتها، "يا ربّ، خذْ من عمري، وأعطِ هلال" وقُدّر أنه سيكون لها الأمر الذي أرادت.

حدث أن صلّتْ لمرّة ثالثة .. ابتهلت لأن تُصاب "سلمى" العجوز بالعمى، كانت تكرهها وهي تعرقل زواجها من "هلال" بعد ترمّلها،



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تكره تحكّمها بالتفاصيل التي لا يغيب عن بصرها أيّ شيء منها، تشعر بالنقمة الحارقة منذ أن جعلت "هلال" يتزوّج بـ "خديّة"، ويفتّتها القهر، وهي ترى انحيازها دائماً لـ "مسلّم"، الصبي المختلّ الصامت غالباً، كانت تحاول أن تقرّبه من "هلال"، وتُبعد أبناءها .. حتّى أخوه من "هلال" و"خديّة"، بقي بعيداً، العجوز الخرفة تُقرّب الزيت من النار، وهي تحاول أن تردم الهاوية بالجمر بدلاً من الرماد .. وكما في المرّتَيْن السابقَتَيْن، كان لها ما ابتهلت ليحدث.

في المرّة الرابعة، صرخت وهي تُلقي بجسدها على جسد الصغار، لتقيهم النار، "يا ربّ، الماء، ماء"، لكن صلاتها لم تتحقّق، بل راح التّلظّي يزداد. كان عمر "نجلاء" يحترق، لتزداد سنوات "هلال".



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب الاضمحلال

## -١-

الشارقة ٢٠٠١

- هذا إيميلي.

- شو يعني؟!

- لازم يكون عندج كمبيوتر .. قولي لأبوج.

ثمّ كان أن أخذت الطريق تتّسع والبيوت في ابتعاد، وبدلاً من أن تشعر بالسعة، داهمها غرقٌ عارم، غامت عيناها وهي تلصق وجهها بزجاج المركبة المغادرة، على أمل أن تستطيع النفاذ للتفاصيل، ما قد يتبقّى منها وهم في طريقهم الآن نحو عالمهم الجديد، "مطر" أخذ يصغر أيضاً، يتضاءل في القامة والوضوح حتّى بات من بعيد لكأنه ذلك الطفل الذي عرفته في أوّل تفتُّح الذاكرة، فيما غاب عن المشهد "مسلّم". لم تتخيّل أن الأمر سيكون واقعاً بهذه السرعة. لا زالت تذكر المرّة التي قاد بها والدها المركبة، حيث توقّف بهم في منطقة أقرب ما تكون إلى الصحراوية، في مربّع صغير منها، قائلاً "هنا سيكون بيتنا الجديد"، ومع الوقت، أصبح الأمر بالنسبة إليها يشبه الأُحجيّة الجديدة التي أخذت تتشكّل قطعةً بعد أخرى، الأساسات، الإسمنت، الغرف، الأثاث، وأخيراً التفاصيل التي راحت تتسرّب من منزلهم الحالي إلى الآخر الجديد، لقد كانت الآن تختبر رحيلها الأوّل، رحيل وادع أيضاً، ككل شيء سبق لها أن اختبرتْه، رحيلٌ لا يشبهُ رحيلَ الجدّة، هم لا ينشدون القرب من البحر، كونهم في طريقهم للابتعاد عنه، بشكل أكبر، لن يتمّ الاكتفاء بتسرّب التفاصيل والأشياء من القديم إلى الجديد فقط، سيلحقون بها، تستعيد كم فاجأها تخلّي "مطر" عن حذره المعتاد معها منذ أن خطّ شاربه الرفيع، وكيف أنه في غمرة انهماك الكبار بنقل ما تبقّى، دسّ تلك الورقة الصغيرة في يدها، أحرفٌ إنجليزية، وكلام متتابعٌ هامس، عن



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنهم يستخدمون الحاسوب في المدرسة الآن، وأنها ستلحقه في استخدامه، عن أنه أقنع "مسلّم" بأن يبتاع له واحداً، وعن ضرورة أن يبقيا على تواصل، عندها فقط أدركت أنه في العالم الجديد، لن يكون هناك "مطر"، وهذا يعني أنه لن يكون هناك "مسلّم" بطبيعة الحال .. أحسّت بالثقل .. وسقط القلب.

لم يعد للحَيّ القديم أثرٌ .. تضاعف شعور الغرق .. عادت إلى موقعها المعتاد في منتصف المقعد الخلفي من المركبة، تستمع إلى تفاصيل روتينية، يتبادلها الوالدان كحديث لبتر الملل .. أردات هي أن تبتر شيئاً ما بدورها ..

- "باباه" .. هل أستطيع أن أحصل على "كمبيوتر" خاصّ بي؟

## -٢-

- مرحباً، أيّها الغريب.

- .....

- مَنْ أنتَ؟ .. أو هل أقول ما أنتَ؟

كان الصمت كثيفاً، يحيط بها، وهي لا تدري ما الذي يتوجّب عليها قوله، وهي تواجه غرابة لم يسبق لها أن واجهتْها سابقاً، الفتيات كلهنّ يتبادلنَ عناوينهنّ الإلكترونية، لكأنها عناوين البيوت، المواعيد التي كانت يُؤثّث لها بعد سلسلة من موافقات الأهل، واعتبارات المكان والزمن تلاشت، لتحلّ محلّها مواعيد افتراضية، لا تستلزم أيّاً من الشروط السابقة إلا ذلك العنوان المبتكر للبريد الإلكتروني، ببرامج دردشته الخاصّة، حدّدت مع الصديقة موعداً منها، سجّلت عنوانها البريدي في عجل، لم تعرف كيف هي البرتوكولات المتّبعة في ذهنها الصغير عندها، لكنها وضعت اعتباراً واحداً، هو أنها لا تريد التّأخّر عن الموعد، كما لو أنه موعد من أحد مواعيد اللهو على الأرض، تردّدتْ قليلاً أمام المربّع المشعّ الذي ظهر على الشاشة مُحيِّياً إيّاها، صمتت أمام الأسئلة وغرابتها قبل أن تدخل المغامرة، مغامرة مواجهة الغريب



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالغريب، دفعت كثافة الصمت بمحاولة استفهام حائرة، كيف لها الآن من مكانها هذا أن تنتقل إلى العاصمة في ثوانٍ معدودة، هي التي لم يسبق لها أن زارتها، لم يسبق لها أن تخيّلت ما هو شكل الحديث مع أحد سكّانها؟! وكان هو على الجانب المقابل، يعتقد أن في الأمر مزحة سامجة من أحد الأصدقاء اليوميّين، ثمّ راح يظنّ أن هذه الغريبة على الجانب المقابل تستخدم السذاجة كقناع، تخفي خلفه شخصيةً أذكى من خطأ صغيرٍ، يحول بينها وبين الموعد المفترَض مع تلك الصديقة، هو الذي كان يحاول أن يدفع الصمت الكثيف في عالمه اليومي، بالفائض من الثرثرة الافتراضية، كانت المغامرة بالنسبة إليه هي شكلاً من أشكال الثرثرة تلك، شعر بأنها تلعب معه لعبة ما، وأن المختلف هنا اليوم وفي لحظته تلك هو أن تكون المغامرة قبوله بأن يلعب اللعبة معها، أن يكتشف الحقيقي المتوارب خلف السذاجة.

- حسناً، لنُكمل اللعبة.

- أيّة لُعبة؟

- أنا أعرف أنكِ "ميرة" الآن، وأن لكِ صديقة اسمها عائشة، تظنّين أنني هي لسبب ما، بينما في الحقيقة أنتِ لا تعرفين عنّي شيئاً، مَنْ يستطيع أن يعرف أكثر عن الآخر سيفوز ..

- لا أريد.

- لماذا؟

- لستُ مهتمّة.

- كم عمرك..؟

- ١٥.

- حسناً .. سأمنحكِ نقطة .. لسذاجتكِ .. أنا "مسلّم".

-.....

- أين ذهبتِ؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كم عيناً لكَ، يا "مسلّم"؟

- ماذا؟!

## -٣-

الوحدةُ حقيرة

الهواء في غرفتكَ حامض

والكلمةُ العفنة عند حلقكَ لاذعةٌ جدّاً

ما الذي ستقوله؟

أنتَ محاطٌ بكَ، ولا تقدرُ على الهرب!

ريم الصالح

بين "مسلّم" الذاكرة و"مسلّم" الآن وجدتني أترنّح، فيما راح "مطر" يضمحلّ قليلاً، كان رحيلنا مربِكاً بقدر ما كان وادعاً في ظاهره، الحَيّ المترفّع هنا فيما يشبه الصمت الدائم، والبيوت الضخمة التي تكاد تُشعركَ لشدّة سكونها أن لا أحد يقطنها، حتماً عليّ أن أتمرّن بسرعة على نظامنا الجديد، على هذا الصمت المنفلت كابنة وحيدة تدرك للتّوّ هذه العزلة، التي راحت تتضاعف، فإذا بها تقف بيني وبين أبي الذي انشغل في عمل روتيني صباحاً، وفي أعمال حُرّة في المساء، فيما انشغلت والدتي بإعادة تأثيث علاقاتها الاجتماعية الجديدة، علاقات اجتماعية مبتورة، لا ترتكز على المشاركة الدائمة، تلفّها الحواجز، الاقتراب الغامض والابتعاد المباغت وطقوس متكلّفة، حتّى المربّية هي الأخرى، انشغلت مع الخادمة التي أحضرت لمعاونتها على هذا المنزل الكبير المكوّن من طابقَيْن والكثير من الغرف المجهّزة لضيوف آيبين ربّما أو أخوة افتراضيّيْن على سبيل الاحتمال، لم يأتِ منهم أحد، أحضرَ لي والدي الحاسوب الذي أردتُه بعد شهر من الإلحاح المستمرّ، وقتها كان قد أصبح لـ "مطر" حاسوبه " الذي حصل عليه مستعملاً، وابتاعه بثمن مخفّض، صار



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لنا موعدٌ افتراضي شبه يومي، أحاول من خلاله أن أستكمل الخطوات الناقصة حتّى أستطيع أن أصل لعين "مسلّم"، لكنه بقي يصدّني بتفاصيل مقتضبة، فالعزلة بينه وبين "مسلّم" راحت تكبر أيضاً، شيءٌ ما جعلنا نعتقد أن هؤلاء الكبار لا ينتمون إلى هذا العالم الذي ننتمي إليه، كان يُطلِعني على تناقص وجوه الحَيّ المألوفه بالتدريج، لتأتي محلّها وجوه غريبة، بلكنات ولغات أغرب، فيما لا يزالان هو و"مسلّم" في هذا البيت الصغير المتهالك، "مسلّم" يرفض أن يغادر هذا الحَيّ، تكفيه هذه المسافة المضلّلة عن البحر، فيما يرغب "مطر" بأن ينتقلا إلى الجانب الأكثر حداثة من المدينة، كانت هذه شكواه اليومية تقريباً، استغربتُ من مفارقة أن خروجنا من نطاق الجيرة، قرَّبَنا نوعاً ما بعد فترة جفاء وتحفّظ، كان فيها الرجل، وكنتُ فيها المرأة، نحن الآن "ميرة" و"مطر" فقط، الصغيران اللذان يتشاركان الحَيْرة معاً، يشجّعها هو على البحث عن المغامرة، وتستجيب هي بعد تردّد، لم أخبره عن "مسلّم" الآخر .. شعرتُ بأنه مغامرتي الخاصّة جدّاً، التي أعيشها للمرّة الأولى بدون تحريض من أحد، كما أنني لم أعرف كيف أشرح له وصولي إلى ذلك الـ "مسلّم" .. الشّابّ الذي ينتمي للعاصمة، والذي كما قال لي إنه عليّ أن أزيد على عمري اثنتا عشرة سنة، لأصل لعمره .. كما لم أُطلعه على طبيعة اللعبة التي نلعبها، لكأنني وجدتُ فيها شيئاً، أستبدل به يأسي بالوصول إلى سرّ العين الناقصة لوالده. كنتُ ألتقي بـ "مطر" ساعَتَيْن يوميّاً قبل السابعة مساءً، نتبادل التفاصيل الروتينية للمدرسة والحكايات المقتضبة وبعض السخط، قبل أن أتوجّه لاستكمال روتيني الوحيد بعشاء سريع ونوم مزيّف، منتظرةً الحادية عشرةً مساءً موعد "مسلّم"، الموعد الأهمّ، الأشدّ كثافة، المتفتّح على الدهشة بالنسبة إلى صغيرة الرابعة عشرة في واجهة شخص من عالم الكبار، لكنه لا يبدو مثلهم، كان موعداً نلتزم به بدون انقطاع، بما يمتدّ أحياناً حتّى الثالثة فجراً، يشاركني الأفكار والأُغنيّات والعناوين، وأُمطره بالأسئلة .. كنتُ أشعر بأن أحاديثنا معاً تشبه أن نتجاور في ماراثون طويل .. لكثرة علامات الاستفهام اللاهثة التي يزرعها في طريقي، كان حضوره اليومي منذ ستّة أشهرأمراً



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكاد يصبح بديهياً حتّى تلك الليلة .. كنتُ قد أغلقتُ الضوء، وواجهت سطوع الحاسوب في غرفتي بانتظاره، مرّ الوقت بثقل شديد، وأنا أنتظر ذلك الإشعار الصغير على زاوية الشاشة في برنامج "الماسنجر" التي تعلن عن دخول "The spy"، كما اختار لاسمه الافتراضي أن يكون فيما اكتفيتُ أنا بـ ""M صغيرة تشبه تردّدي. انتظار طال، حاولتُ كسره بأحاديث مشتّتة مع زميلات، كنّ في البرنامج في ذلك الوقت، قبل أن أقرّر أن أستثمر الوقت في موقع القصائد الذي أرشدني "مسلّم" إليه، قرأتُ، ودوّنتُ ما انتظرتُ من "مسلّم" الغائب أن يفسّره إليّ لاحقاً .. للقطّة كما اعتاد أن يسمّيني في لهجة ماكرة .. أذكر المرّة الأولى التي بدأ بها أمر القطّة هذا .. يومها كنتُ قد أخبرتُه عن أننا بقدر ما نبكي، فإن أرواحنا تنقص، وهو تحذير كنتُ قد سمعتُه من "مطر" الذي كان بدوره قد أخذه عن والده .. قال لي بأنني المأخوذة بـ "مسلّم" ذاك، جعلتُه يتحوّل إلى مهتمّ به هو أيضاً .. قبل أن يعقّب:

- أنتِ كالقطّة.

- - القطّة؟

نعم ..

- ماذا تعني؟

- حسناً، سأحاول أن أشرح لكِ الأمر ببساطة.

- لا تُبسِّط، أنا أستطيع أن أفهم، لا تتعامل معي كطفلة.

- هههههه حسناً، عموماً الأمر معقّد حتّى على الكبار، لقد قرأتُ مرّة استنتاجاً ظريفاً من عالم اجتماع يُدعى "شارل كورنريخ" يقول فيه إن الإنسان الذي لطالما اعتقد بأنه هو الذي استطاع ترويض بعض الحيوانات غير الأليفة وتدجينها لخدمته، خسر أمام حيوان واحد، جعل من الإنسان العكس، هو الذي يألف عليه، ويعمل على توفير طعامه وراحته.

- تقصد القطط.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- تماماً .. انظري لها، سواء تلك الشاردة منها أو تلك المدلّلة التي نأويها في منازلنا، نحن نوفّر لها طعامها طوعاً أو كراهية دون أن نستنكر ذلك .. ودون أن نستفيد منها بشيء في حقيقة الأمر .. أليس كذلك؟

- ربّما، لكنْ، ما وجه الشبه بيني وبينها؟ .. أنتَ لا توفّر طعاماً لي، ولا مسكناً ..

- هههههههه، لا تأخذي الأمر بحرفيّته، ما عنيتُه هنا أنني كنتُ أعتقد أنني لن أستمرّ بتلك اللعبة الغبية التي بدأتُها معكِ، حول التفاصيل، فإذا بكِ تأسرينني بتفاصيل "مسلّم" صاحب تلك العين الواحدة، أنا أريد أن أعرف أيضاً.

قاربت الساعة الثانية صباحاً، كان عليّ أن أعود إلى سريري، نمتُ يومها، وحلمتُ بأن لـ "مسلّم" والد "مطر" عين قطّة .. استيقظتُ على شعورٍ بالفزع، لازمني دون أعي نهاري كله .. فرغم وداعة روتين الصباح، كان وجهُ والدي متوتّراً، هو الذي للمرّة الأولى يشعل جهاز التلفاز، ونحن نتناول إفطارنا الصباحي، كان يبحث في القنوات الإخبارية جميعها عن شيء ما .. تأمّلتُ بسكون مشهداً لما يبدو بأنه حريقٌ يأكلُ مبنى ما .. قبل أن أسأل والدتي:

- ماما، ما الأمر؟ ما هذا الذي يحترق؟

- هذا ليس حريقاً، إنه هجوم.

- هجوم؟

- نعم.

- كيف؟

- لقد هاجمت طائرةٌ هذَيْن البرجَيْن في الولايات المتّحدة، ومات خلقٌ كثير.

- لكنه في الولايات المتّحدة، لماذا يتوتّر أبي؟

- سيؤثّر الموضوع علينا، قد لا نتمكّن من الذهاب لرحلتنا المقرّرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للولايات المتّحدة الصيف القادم، كما سيعطّل هذا أعمال أبيكِ؟

- لماذا؟

- أنتِ تسألين كثيراً .. تناولي إفطاركِ بسرعة، علينا ألا نتأخّر عن المدرسة.

أوصلتْني أمّي إلى المدرسة على غير العادة .. تركتُ المنزل بين قَلَقَيْن .. قلق أبي أمام الشاشة وقلقي أمام غياب "مسلّم". أسرعتُ بعد أن تأخّرتُ على الطابور الصباحي لفصلي، حيث حصّة التربية الإسلامية، تابعتُ استعجالي في الدخول، كان هناك هرجٌ عظيم، جلستُ في مكاني في الصّفّ الثالث، أوقفتْني المعلّمة، ظننتُ أنها ستعاقبني على تأخّري إلا أنها بادرتْني بما رأيكِ؟ ..

- رأيي بماذا، معلّمة؟

- بما حدث بالأمس ..

- الحريق؟

- هذا ليس حريقاً، إنه نصرٌ عظيم .. هذه بطولة.

كرّرت بعض الطالبات كلمة بطولة في شيء من الحماسة، بقيتُ أحدّق بها بحَيْرة .. لكن شيئاً ما في توهُّج العينَيْن أمامي جعلني أشعر بالفزع .. قبل أن أكرّر في صوت خافت ما قالتْه أمّي.

- هذا هجوم.

كنتُ أنتظر نهاية اليوم بفارغ الصبر، تجنّبتُ توتّر والدي، شعرتُ بأنه لن يستطيع أحدٌ أن يُطفئ هذه الحَيْرة إلا "مسلّم" .. قابلني "مطر" في موعدنا الافتراضي المعتاد، فإذا به يكرّر تلك الما رأيكِ؟ .. قبل أن يعقّب بحماسة .. وفي بعض عبارات سريعة ما كانت تقوله المعلّمة في هذا اليوم، حاولتُ أن أقتضب حديثي معه، وأنا أطالع بعض المواقع الإخبارية المتنوّعة على الشبكة الإلكترونية، تجنّبتُ المحلّيّة "الناشفة" منها، كما كان قد كرّر "مسلّم" مراراً، وهو ينتقد صحافتنا المحلّيّة الهشّة على حدّ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصفه، باغتتْني العناوين العالمية بكلمات غامضة حول "الإرهاب" و"ابن لادن" .. انتظرتُ موعدي مع "مسلّم" .. صورته كمفتاح الإجابات كلها .. لكنه أمعن في الغياب، وجدتني ليلتها أنسخ اسمه المستعار بالزخرفة ذاتها التي كان يُزيّنه بها، لأضعه في خانة معرف البحث "Google"، منتبهةً يومها إلى أنني كَمَنْ كان يتحدّث مع شبح، بلا صورة أو صوت أو رائحة .. فصورته التي يضعها في المحادثة هي صورة رجل يبدو كهلاً بنظّارة شمسية ضخمة و"عقال" عريض و"غترة" بمربّعات دقيقة .. سألتُه عنها ذات يوم .. ليُجيبني بأنه أعظم شاعر كويتي.

- ما اسمه؟

- "فهد العسكر".

- أتحبّه إلى هذه الدرجة؟

- حبّي لا يفيد في شيء، إنني أضع هذه الصورة، لأعيد تذكير العالم به ..

- هل مات؟

- نعم .. مات صغيراً ومنبوذاً .. وأعمى، دعيني أشاركِ بمناسبة السؤال قصيدة من قصائده.

- أنا لا أحبّ الشِّعْر.

- ستحبّينه ..

- بالإكراه؟

- لا .. بالجمال.

تدفّقت نتائج محرّك البحث أمامي، لتقطع تدفّق الذاكرة، بعد أوّل نتيجَتَيْن اعتباطيَّتَيْن، ترجمتُ معنى The Spy إلى الجاسوس، وجدتُ الزخرفة ذاتها التي يحملها اسمه في أحد المواقع، سارعتُ لاستكشاف الأمر، كان هو، " The Spy .. عرفتُه من نبرته التّهكّميّة وكثافة المعلومات التي تشارك بها مع افتراضيّيْن آخرين عالم



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحــد المنتــديات الإلكترونيــة، لـم يكـن فيمـا تشـاركه أيّ أثـر لشخصيّته الحقيقية، ولا لاسمه، فقط صورته هي ذاتها لـ "فهد العسـكر"، كـان معـهم كما كـان معـي، كثيفاً فـي زرع علامـات الاسـتفهام حولـه، وجـدتني أدخـل إلـى ملـفّه الشخصي لأشاهد العبارة التي دوّنها في ملفّه الشخصي كتوقيع إلكتروني .. "أنا ديني الهوى، ودمعي نبيّي .. حين أصبو ووحيهُ إنجيلي" .. دوّنتْ العبارة، على الرغم من أنني أذكر بأنه تشاركها معي سابقاً يوم سألتُه عن "العسكر"..أغلقتُ جهاز الحاسوب عائدة إلى سريري، وأنا أضع العبارة بجانب رأسي، كانت أفكاري غائمة .. لم أعرف بمـاذا أفـكّر قبـل أن أنـام، وجـدتني أفـكّر بفـهد العسـكر، بعمـاه، باسرافه في الذهاب إلى البعيد من كل شيء .. شعرتُ بـ "مسلّم" يقف عند تلك النقطة العَصيّة على الإدراك، أظنّني يومها أدركتُ شـعور الإنسـان بـالعجر، ومـا الـذي يعنيـه أن يبكـي الإنسان لقلّة حيلته ولحَيْرته معاً.

غيـاب "مسـلّم"، جعلنـي أتمسّك ببقاء "مسلّم" الأب فـي عـالمي، حـتّى وإن كـان هـذا البقـاء ضبابياً، كونـه يـأتي من خلال ابنه، انتظرتُ "مطر" في اليوم التالي، لأسأله عن رأي "مسلّم" والده بما حدث، استغرب "مطر" في البداية هذا السؤال، فلماذا يهمّني رأي والده من بين الآراء جميعها في العالم، لكنه بعد إلحاح منّي، قال إنهما كانا يتابعان الحدث معاً على الشاشة ساعة وقوعه، وإنه تحسّس عينه المصابة قبل أن ينهرَه، ليُغلق التلفاز.

- "تعرفين .. شكله خلاص كبر وايد وخرّف".

هنا، أخذني "مسلّم" الأب إلى حَيْرةٍ أخرى، فلماذا، عندما تحسّس الناس قلوبهم .. تحسّس هو عينه؟! .. رافقتْني الفكرة أيّاماً دون أن أستطيع أن أجد الإجابة في محرّك البحث .. وجدتني مرّة أخـرى ليلتـها أقابل صورة "مسلّم" الأب بنصف عماه مع صورة "فهد العسكر" بعماه الكامل، كان "فهد" الآن هو "مسلّم الآخر" .. تـذكّرتُ ذلـك الحلـم البعيـد .. وضعـتُ يـدي علـى قلبـي .. شعرتُ بشيءٍ يشبهُ الوخزة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب الهدم

ظلّ الحصن عبر تاريخه الطويل الركيزة الأولى للدفاع عن المدينة، ومقرّاً للحكم، وسَكَن الأسرة الحاكمة في إمارة الشارقة حتّى مطلع الخمسينيات، حيث تحوّل الحاكم للسَّكَن في بيت بناه قرب الحصن، قبل أن يتحوّل لاحقاً في نهاية السّتّينيّات الميلادية إلى مركز لقوّة شرطة الشارقة، وقد هُدم الحصن في عام ١٩٦٩، ولم يبقَ منه سوى البرج الدائري الواقع جهة جنوب شرق، والمسمّى بـ "بري الكبس" / برج الكبس، ثمّ تمّ ترميمه(05).

## -١-

الشارقة ١٩٦٩ م

النار من وجهة نظر "مسلّم"

كانت السماءُ تمطر كتلاً من الحجر والطين، وكان يهرول، الدخان عارم، الفوضى كبيرة، كتلةً بعد أخرى، ونَفَساً بعد آخر، حتّى توازيا في اللهاث .. "الحصن" الذي راحت أبراجه تتهاوى أمام إصرار الآلات الغريبة، ودهشة الناس، وهو الذي تهاوى قلبه ما إن سمع بنبأ الحريق بعد مناوبة حراسة ليلية .. الوجوه الأثيرة كلها هناك، وهو وحده مهرولاً في هذه الطريق الطويلة على غير العادة بعد أن أوصلته أوّل مركبة عابرةٍ، راعها حاله إلى رأس الحَيّ، راكضاً بلباس الشرطة وقامته العالية ورأسه الحاسر الذي سقطت قبّعته .. ومرّة أخرى كان في مواجهة "هلال" والموت، "هلال" الذي خرج من الرماد الكثيف كتّاً وأشعث، يهيل التراب على رأسه وقلبه ويصرخ في صوت أقرب للعواء، قبل أن ينتصب بعيونٍ مُروعّة ما إن رأى "مسلّم" راكضاً تجاهه من بين الجموع التي تحلّقت بين متأمّل ومندهش ومحاول للمساعدة .. انتصب "هلال" .. كشاهدٍ وحيد .. تماماً كما سينتصب لاحقاً "برج الكبس" وحيداً .. آخر شاهدٍ على أمر هدم "حصن الشارقة" الذي أوقفه الشيخ القاسمي الشّابّ العائد من القاهرة، إلا أن "هلال" البشري الهشّ جدّاً، خار أخيراً متهاوياً بقامته الذاوية بين يَدَي "مسلّم"



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي بقي متسائلاً عمّا حدث؟

"لا أعرف .. قد، قد أكون قد نسيتُ، أعني كنتُ أدخّن فقط، قد يكون أمرٌ آخر، ثمّ غبتُ .. وعدتُ .. وفوجئتُ بالنار .. أنا لا أعلم .. كيف لأمرٍ كهذا أن يحدث؟!"

قالها في حشرجةٍ مرّة، ثمّ بكى، وجلس "مسلّم" بقلبٍ نبضاته مدوّية .. بين حنق وحسرة .. عاجزاً عن البكاء .. وعاجزاً عن أن يهصر "هلال" بين يَدَيْه حتّى يموت .. ومرّة أخرى، تحلّق الناس حـول "هـلال" متعـاطفين .. بـين مُحوقـل، ومُتـرحِّم، جميعـهم مُشفِقون على هذا الكهل الذي خسر عائلته كلها جرّاء الحريق مباغت.

- هذا أمر اللّٰه.

- "قضاء وقَدَر".

- "اللّٰه يجيركم فمصيبتكم".

- " اللّٰه يرحمهم ويصبّركم".

- لا حول ولا قوّة إلا بالله.

راحت العبارات المواسية تنفلت أمامه تباعاً، تنقسم بينهما .. فيما أخذ الصوت المتفجّر يصدح بداخله.."هذا جرم هلال وحده".

ـ يكفي .. أوقفوا هذا الهراء.

صرخ بهم قبل أن يرمي بالجسد المنهار من بين ساعدَيْه، تاركاً إيّاه، ليتلقّفه أحد المتحلّقين. هرع إلى مكان البقايا، كانت الجثث قد نُقلت قبل وصوله، تاركةً له الرماد والعطونة .. تخيّل ذهولهم، اختناقهم، آلامهم والصراخ، ذهول "نجلاء" وهي تدرك أوّل خيطٍ من الكارثة في غرفتها التي دخلتها بعد أن اشتمّت تلك الرائحة، سعال الصغار الذي استحال بكاءً عارماً واختناق أمام اللهب الذي راح يشوي جلودهم الرقيقة، الصرخة المدوّية الأخيرة لـ "خديّة" فـي وجـه النار الذي بدأ كَمَنْ يُطلق في وجهها الذائب ضحكة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هستيرية مروّعة، وحده "هلال" الذي عاد أخيراً، نجح بمعاونة أهل الحَيّ وقوّات الإطفاء المتواضعة بإطفاء تلك الضحكة، لأنه الضاحك أبداً في وجه الموت، أو لأنه هو الموت ذاته في تجسّده الأرضي، راح "مسلّم" يرى الآن فيما تبقّى من دخان .. وجوههم وهي تمضي بربكة إلى العُلُوّ .. يشعر بلسعة مبهمة، حار شعوراً مرّة أخرى، هل هو غاضبٌ أم متألّم؟ .. هل يريد أن يبكي أم أن ما يخالجه الآن هو شيء آخر؟ .. هل هذا هو اشتعال الروح؟ .. لماذا لا يستطيع أن يتخيّل نفسه ماضياً ليودّعهم، أو ليودّع ما تبقّى منهم؟ هل هو خائفٌ من مواجهة الموت وحيداً وأعزلاً؟ لطالما ارتبط وجه الموت بالنسبة إليه بسطح البحر، بالماء، الذي أخذ "إبراهيم"، لكنه الآن في يومه هذا .. ومكانه الذي يشعر من خلاله بأنه في هاوية سحيقة، يرى الموت في النقيض، في الشرارة التي ولدها تدخين "هلال" وإهماله، في الشعلة، في اللهب والاضطرام المتلظّي .. في الضحكة المجنونة للنار، في رقصة العذاب الأبدية التي تمارسها وهي تذيب وتحرق، "يا اللّه"، قالتها روحه .. لكن اللسعة التي امتزجت بها كانت أشدّ وطأة. فراغٌ موحِش ولسعة .. كرّرها "يا اللّه" .. فراغُ الآن .. شيءٌ بداخله راح يقترب من العدم، "يا اللّه" .. عاود المحاولة للمرّة الثالثة .. تضخّم العدم، أرعبتْه تلك الهوّة السوداء التي راح يسقط فيها دون أيّ قدرة على المقاومة، شعر بارتجاف في الساقَيْن، بالغثيان .. انكفأ متقيّئاً، هرع إليه أحد الزملاء من الشرطة، حاول أن يساعده على التوازن، سقط .. وسقطت معه الدمعة، وذلك الجزء المشتعل من الروح .. فيما استمرّ العدم يلفّه أكثر فأكثر، حتّى جاءه ذلك الصوت البعيد، كان صوتاً أليفاً إلى حدٍّ كبير .. ميّز اسمه خلف ياء المُنادى ..

يا "مسلّم".

ناداه "خاطر"، فامتثل ..

- في البحر مرّة، وفي النار مرّة، وبينهما عطشكَ ونصف العمى.

يا "مسلّم".

هتفت إليه "خديّة"، فأجاب:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- في البحر مرّة، وفي النار مرّة، وبينهما عطشكَ ونصف العمى.

ثمّ كان أن راح يغرق في بحرٍ من اللهب، كان بحراً، برتقالياً مروّعاً .. حاول أن يشهق، أن يخرج إلى السطح، أن يبلغ الضّفّة، أن يصرخ طلباً للنجدة، لكن صياحه ضاع وسط تلك الضحكات الهستيرية الفاقعة التي لم تتوقّف عن التّردّد من مكان مُبهَم .. كفَّ عن التّخبّط، واستسلم .. قرّر أنه سيبكي الآن .. سيبكي حتّى تأتي النهاية سريعاً .. لكن ضوءاً عارماً بلغه فجأة.

- الحمد لله على سلامتكَ.

اتّسعت عيناه، وانتصب، كان مبلّلاً، كالخارج لتوّه من الماء، حاول أن يستدرك مكانه، أن يتحرّك إلا أنه فشل، رأى وجهاً ضبابياً يقترب من وسط الضجيج، وجه "سعيد" الزميل والجار، الذي هرع مبتسماً ومكرّراً ..

- الحمد لله على سلامتكَ.

نظر إليه "مسلّم" في شيء من الربكة، كان شعور الحَيْرة أكبر من أن يبرّر، حاول أن يلتقط الواقع من الحلم، أراد لكل ما حدث أن يكون حلماً، تماماً كما أراد للحلم أن يكون واقعاً، أن يكون صوت "خديّة" الذي جاء، هو تمهيدٌ لإطلالتها القريبة.

- "وينهم ..؟"

- عظّم اللّهُ أجركَ، يا "مسلّم".

- لقد أحببتُهم رغم كل شيء!

- قالها كَمَنْ يستدرك الحقيقة فجأة.

- تجلّد.

هادنه "سعيد" .. أو حاول أن يهادن ذلك الشرخ الذي انبثق من الصوت.

- أين أنا؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نحن في "النباعة" في المستشفى الكويتي .. لا بأس عليكَ، لقد قالوا لي إن بإمكانكَ المغادرة فور استيقاظكَ .. "هه"، هم مستعجلون لخروجكَ، تعرف مع بساطة الإمكانيات، يريدون توفير أكبر مساحة ممكنة .. ألم تلحظْ هذا الضجيج والأسرة المتراصّة حولكَ؟

تأمّله "مسلّم" في شيء من الشرود، عادت الذاكرة، لتحتال عليه، مزجت بين كارثة الحلم، وكارثة الواقع التي كانت في روعها أقرب للخيال .. وجد أنه يعود لأوّل الدائرة، للسؤال الذي يودّ لو أنه يكشف عن إجابة أخرى ..

- هل حقّاً؟!

- حقّاً ماذا؟!

- أنهم؟

- تجلّد.

- "هلال"!

- هو بخير، في بيتنا الآن.

- "هلال" قتلهم!

- ما هذا الذي تقوله؟!

- كان يجب أن يموت منذ زمن طويل .. لو مات .. لما ماتوا .. لو أنه قضى .. لما.....

- أستغفر اللّٰه، يبدو أنكَ لا زلت تهذي.

-هل هذيتُ؟

- بقيتَ تنادي "خاطر" .. أظنّ أنكَ الوحيد الذي بقي يذكر "خاطر"، يا "مسلّم" .. ما هو أمركَ معه؟

- المحطّة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا؟

-دعنا نذهب للمحطّة.

- ألن تراهم؟

- هم يرونني، وهذا يكفي.

- أيّ كلامٍ غريب هذا! مَنْ سيتولّى أمور الدفن؟

شعر بالغضب والعجز معاً أمام حصار "سعيد" المنطقي، لكنه يعي الآن، أنهما وحدهما، هو و"هلال" في مواجهة ما تبقّى من الموت .. إلا أن شيئاً ما في داخله بقي يصرّ.

نذهب للمحطّة، ثمّ نعود.

ما الذي تريده من المحطّة؟ .. ثمّ هل نسيتَ الإنجليز؟ .. موقعنا بحكم عملنا محدّد، قد يعدّون أن في ذلك التواجد هناك خرقاً للأوامر.

شعر بأنهُ ينساهم فعلاً، لكأن آخر عهده بهم هو تلك الليلة التي زار بها مع "خاطر" المحطّة، حيث بقوا محتجزين أمامه في تلك الشاشة الضخمة، كيف له أن يشعر بذلك؟ رغم أنهم كانوا لا يزالون حاضرين في حياتهم اليومية، يتأمّلونهم من مكانهم المترفّع، ببرود وبتحفّز معاً، يحرّكون أصابعهم الخفية متى ما توجّب الأمر، ويغيبون متى ما رأوا أنه المناسب، سنةٌ مضت منذ أن التحق بالشرطة الخدمية التي كان لهم الدور الرئيس في إنشائها، كانوا يتظاهرون بحماية الناس أهالي الأحياء، في الوقت الذي كانوا فيه فعلاً يؤمّنون ظهورهم، مصالحهم الأخيرة تمهيداً للجلاء الكبير القادم في ١٩٧١، الذي سيعقب المناوشات البرلمانية الممتدّة منذ العام ١٩٦٧ بين حزب العمّال والحكومة البريطانية، أغمض عينَيْه .. تنهّد.

- خذني لأمّي.

قالها وكان أن مضيا معاً، هو و"سعيد" لمواجهة ذلك البياض



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المريِك .. بياضٌ كثيف، لكأن السواد لم يكن، بياضٌ كثيف، لكأن ليس للتراب مكانٌ هنا، بقي المشهد ساطعاً في عينَيْه ساعة الدفن، لا يتذكّر شيئاً من الذهاب لتفقّد أجسادهم المتهالكة، من مقاومته للغثيان المتصاعد مرّة أخرى مع الارتجافة واللسعة ذاتَيْهما، من نظرة "هلال" المنكسرة يوم عاد إليه، من الهمهمات، البسملات والحوقلة، المبادرات الخجولة التي راحت تحاول تجميع ما قد يسدّ حاجتهم المباغته لهذا العدد من الأكفان، قلّة حيلته وقلّة ذات اليد اللتان دفعتاه لتقبل تلك المساعدات على مَضَض، نسي كل شيء إلا البياض وشعوره الغامض بالعطش .. و"يا الله" التي كلّما ردّدها .. شعر بالعدم يطلّ من جديد، ليأخذه إلى الهوّة ذاتها والغرق اللاهب ذاته.

ثمّ حدث أن عاد "مسلّم" و"هلال"، إلى منزل "سعيد" مع أسرته التي تكوّنت منه ومن والده "سهيل" وأخت وحيدة هي "علياء" شكّلت بمثابة الذاكرة الحَيّة لما كانت عليه هيئة "أم سعيد" من قوام متوسّط الامتلاء وسحنة سمراء رائقة وعينَيْن حائرتَيْن بين السعة والضيق، وشفةٌ وحشية ممتلئة. مرّت "علياء" أمامه كفكرة منعشة، وهي تلقي سلاماً خجولاً منسحبة بعد أن أشرعت لهم الباب، قبل "مسلّم" على مضض مرّة أخرى أن يقيم هو و"هلال" في غرفة، أفردها لهما "سهيل" إلى حين أن يُعاد بناء المنزل الذي احترق أو ريثما يجدان مكاناً آخر، يقيمانِ فيه، حيث كان عليه أن يواجه كل ليلة كابوس بقائه في ذلك الحيّز الضّيّق مع "هلال"، مستمعاً لأنفاسه المنتظمة، ومتعجّباً من قدرته الفريدة في العبور على الفواجع بمثل تلك السرعة التي تجعله ينام بمثل هذا العمق، لكأنه لم يفعل شيئاً .. كان يُخيّل إليه في أحيان أنه يقوم إلى موضع نوم "هلال"، فيخنقه حتّى تتلاشى تلك الأنفاس، شعر بأن في موت "هلال" جزءاً من خلاصه، لقد عاد "مسلّم"، صبيّ الخامسة عشرة، الذي خرج راكضاً إلى الحَيّ ذات غروب، بكامل غضبه، قتل "هلال" مرّات كثيرة في تلك الغرفة، ودفنه مرّات أكثر، وفي كل مرّة، لم يكن ابن الثلاثين هو الذي يفعل ذلك، بل "مسلّم"، "المينون" كما وصفه "خاطر"مرّة، كان يريد لـ "هلال" أن يتلاشى، فكان له الأمر بعد ستّةِ أشهر.

39%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- اسمعني، يا "مسلّم" .. أنا "بسافر".

- "وين؟"

- الهند .. تاجر من التّجّار .. "بوسند"، عرض عليّ مرافقته إلى رحتله القادمة، لأُشرف على عمّاله هناك.

.....

- ألن تقول شيئاً؟

- لا شيء لديّ لأقوله.

وبدلاً من أن يشعر بالخلاص، تكثّف بداخله شعور الغضب .. ومن جديد، رأى أنه يمسك برقبة "هلال"، ويهصرها بين يَدَيْه حتّى تتسرّب روحه، ويذوي الجسد .. رأى ذلك بعيداً في داخل عقله وهو يكتفي بزفره، تعقب جملته اللامبالية أمام القاتل.

05) منقول بتصرّف من كتيّب متحف حصن الشارقة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب البتر

## -١-

الشارقة ٢٠٠٢

مختبراً سيجارته بعيداً عن عين "مسلّم" الصحيحة، راح "مطر" يسحب النَّفَس تلو النَّفَس، ويسعل، ثمّ يضحك، شعر بأن الدخان المتسرّب إلى صدره يأتي بأثر يشبه الدغدغة، كان وحيداً في أحد بيوت الحَيّ التي غادرها أصحابها دون أثر وشيك للعودة، "هل تشعر البيوت المهجورة بالحزن؟" تساءل، لعلّها تفعل، فكّر بـ "ميرة"؟ بماذا يشعر منزلهم القديم، يا ترى؟ هو فارغٌ منذ فترة طويلة، في الوقت التي راحت البيوت التي تجاورهم تمتلئ بعشوائية،حاول أن يطيل حبس الدخان، أراد لأثر الدغدغة الداخلية أن يمتدّ، "إذا كانت البيوت المهجورة تشعر بالحزن، فبماذا قد تشعر البيوت التي لم تُسكن بعد؟" يتذكّر منزل "ميرة" الجديد، المرّات التي رافقهم فيها لاستكشاف مكانه، كان المكان خالياً من المعالم في المرّة الأولى، بأفق أصفر ممتدّ، صحراء، أخيراً، كتلك التي عبرها سندباد مع علاء الدِّين وعلي بابا، مع العصفورة ياسمينة، عليهما أن يعثرا فقط على وكر "الجنّيّ الأزرق" لتعود ياسمينة فتاةً من جديد، يتذكّر أن "ميرة" الصغيرة وقفت تبكي فجأة بعد أن خطّطا لرحلة الصحراء والكنوز، وأنه عندما سألها عن السبب، قالت "سيبتعد البحر أكثر".

يتذكّر طقس المناولة الآن، كان الحدث كأمر مقدّس فعلاً، وهم يختبئون تحت أحد السلالم، هو والصبية الكبار في المدرسة، وأطولهم يمدّ له السيجارة الأولى بيدٍ ثابتة وعين مترقّبة، فيما يتناولها هو في حذرٍ ويدٍ مرتبكة، حاول أن يخفي ارتجافتها، كانت السيجارة هي الشرط الوحيد ليقبلوه بينهم، ليكون منهم. رجلٌ ينتمي إلى الرجال.

سحب نَفَساً آخر، وابتسم دون أن يسعل هذه المرّة. لكنه في الوقت ذاته شعر بحركة غريبة في المكان الهامد، التفت ناحية



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحركة والصوت، وكانت المرّة الأولى التي يرى فيها هذا الوجه الغريب.

## -٢-

كل نَفَس يسحبه، كان يشعره بالضيق أكثر فأكثر، لكنه واصل التدخين، وهو يتابع الملاحظات المدوَّنة في الملفّ أمامه حول العمل، حاول أن يركّز على ملامح الرجل في الملفّ، تأمّل العينَيْن، يشعر بأنه منذ بدأ يتشارك مع "ميرة" السؤال ذاته حول "مسلّم" الأب وهو يتأمّل أوّل ما يتأمّل في الوجوه الجديدة "سلامة العينَيْن"، كان هناك شعورٌ عَبَثي داخليّ يقول له بأنه لو عثر على شخصٍ واحد فقط، بخدش في العين يشابه خدش "مسلّم"، فإنه قد يتوصّل إلى خيط ما يقوده إلى الحلّ ؟ ابتسم من سذاجة الفكرة، "لعلّ في الأمر مزحة فعلاً؟ " مج سيجارته ببطء، وهو يتابع حركة الزملاء حوله، يلاحظ جيّداً كيف يتظاهرون بأنهم لا يلاحظونه في مكتبه الزجاجي، يعمل عقله كماسحة عملاقة للصور، صورة كبيرة عامّة لكل المتمركزين في مواقعهم على مكاتبهم الجماعية بالخارج، ثمّ صورة مركزة لكل وجه، "محمّد" الذي ينتظر أن ينتهي اليوم بفارغ الصبر، وعلى وجهه آثار سهرٍ غير بريء، "راشد" المهموم كعادته، "مبارك" المتملّق الذي يتظاهر دائماً بأنه منهمِكٌ في عمل ما، دون أن يدرك أنه يستطيع من هنا أن يراقب حواسيبهم جميعاً، ليرى ما يفعله كلّ منهم على سطح جهازه، "وليد" الساخر الذكي، العدوّ الضمني، الوحيد الذي يهدّد وجوده الفعلي هنا.

أطفأ السيجارة، وعاد برأسه إلى الخلف، شعر بعيونهم تتابعه، لعلّهم يحسدونه على حصانته التي يتمتّع بها في ذلك المكتب الزجاجي، مهمّة خاصّة واحدة جعلتْه ينتقل من هناك إلى هنا.

رفع "رأسه"، وعاد ليشدّد التركيز على عيونهم التي تبعثرت في ربكة لالتفاتته المباغتة تجاههم، بدأ بـ "وليد" هذه المرّة والعينَيْن الصغيرَتَيْن الحذرة، رغم كل ما تحاول الملامح المحيطة بها أن تؤكّده عن عفوية صاحبها، خصوصاً فمه الفاتر عن ابتسامة، تبدو



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكأنها قميصٌ معلّق في غير موضعه، هناك شيء غير راكز في هذا الشّابّ، وكلّما مرّر له هذه الملاحظة ممازحاً، يجيبه صاحب العينَيْن الصغيرَتَيْن بأنها قد تكون عفويّته التي لا ينتبه لها ما يمنحه هذا الانطباع، كان يحسّ بأن إجابته تحمل سخرية ضمنية من سؤاله، هو يدرك ذلك جيّداً، ويعلم أنه لا مجال أبداً للعفوية في عملهم هنا، إنها أوّل ما تبتره وأنتَ داخلٌ إلى مهامّكَ، ثمّ "مبارك" بعينَيْه الغائمَتَيْن، الواسعَتَيْن، كان من المربك أن تطيل التحديق في هاتَيْن العينَيْن دون أن تشعر برغبة مباغتة بالبكاء،ويشعر "مسلّم" بأن هاتَيْن العينَيْن كانتا لتناسبا شخصية "راشد" المأساوية أكثر من عينَيْه اللّتَيْن لا تكشفان عن شيء في حياديّتهما وحجمهما المتوسّط، ولولا جبينه المتجعّد غالباً في حالة أسى، لجاءت عيناه لتكملا ما يحتاجه دور السّيّد المتملّق التي يلعبها "مبارك" دائماً بملامحه المطواعة المرنة التي تقتبس شكلها من وحي نبرتكَ، فتستاء لو استأتَ، وتبتسم لو فعلتَ، بل وتبالغ في الانشراح لو أنكَ أصدرت ضحكة مقتضبة، يبقى "محمّد" بعينَي اللّصّ الرفيعَيْن اللّتَيْن تتابعانكَ، ولا تحسّ بهما، الوحيد الذي تعبّر عيناه عنه تماماً، وهو يغادر قبل الوقت دائماً دون أن يشعر به أحد، والذي تفاجئكَ حاجيّاتٌ كانت على مكتبكَ، لتتحوّل إلى مكتبه دون أن تدرك متى اختفت من حيّزكَ.

حاول بعدها أن يتخيّل لكل منهم خدشاً يحجب عينه اليمنى، هل كانت لتكتمل الأوصاف التي منحها لهم قبل قليل، "لعلّ في الأمر مزحة؟" عاد ليقول لنفسه، ويبتسم، فيما راحت ابتسامة "مبارك" المقابلة تتّسع، وهو يهمّ بالدخول إليه.

-٣-

- أريد أن أجرّب تلك الدغدغة.

- لا يمكنكِ ذلك.

- لماذا؟

- "لأنني بَلْ وإنني بنيّه"



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما الذي يعنيه هذا؟

- لا تستطيع البنات تجربة هذا الأمر.

- مَنْ قال ذلك؟

- الجميع يقول ذلك!

شعرتُ بغضبٍ يتكثّف بداخلي، باغتَني شعور بالاختناق، لكأنني جرّبتُ الدخان الذي تحدّث عنهُ "مطر"، لكنه وبدلاً من أن يجعلني أشعر بالدغدغة، ملأني بالضيق. أغلقتُ المحادثة دون وداع، شعرتُ بخيطٍ آخر يُبتر بيني وبين صديق الأسئلة الصغيرة، تذكّرتُ "مسلّم" الآخر وهو يتهكّم على العبارات المنسوبة لذلك الجمع المجهول .. دائماً هناك تلك المجموعة المبهمة التي قالت ولا زالت تقول، تلك التي تضع الحدود والضوابط الخفية، وتديرها، تشعركَ بأنها معكَ في كل لحظة، تقتحمكَ، تضع الكلمات على لسانكَ، كانوا يقفون دائماً على بوّابات الحذر أو الارتياب، ويبدو أن "مطر" في حينها كان قد سمح لهم ببداية التّمكّن منه، ألم أكن كذلك أيضاً؟، حاولتُ العودة إلى المرّة الأولى التي بدأت فيها أيّ عبارة بـ "يقولون" لكنني فشلتُ، راعني قليلاً أنني لم أعد أذكر إلا التّهكّم.

- لماذا تجعل من كل شيء مادّة للسخرية، يا "مسلّم".

- لأن لا شيء حقيقياً، وكل شيء لا يعدو كونه أكثر من مزحة.

- ما الذي تعنيه؟

- ستعرفين عندما تكبرين، أيّتها القطّة، لكنْ، دعينا لا نتفاءل كثيراً، قد لا يحدث هذا الأمر أبداً.

- أيّ أمر؟!

- أن تدركي المزحة، أو أن تكبري، كلاهما سيّان!

- هل تعتقد أن خدش "مسلّم" مزحة أيضاً.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لعلّه يكون، لعلّنا نطارد مزحة قديمة .. جدّاً، أزلية.

عدتُ إلى صورة قديمة، كان أبي قد التقطها لي ولـ "مطر" في أحد الأعياد، صورة يظهر فيها "مسلّم" الأب في الخلفية بشكل ضبابي، ورغم البهجة الغامرة التي بدونا فيها أنا و"مطر" ونحن نتأهّب لجولة تجميع "العيادي" في الحَيّ، والتي أذكر كيف أنها تسرّبت إلى وجه والدي الذي كان يلتقط الصورة بابتسامة عريضة، إلا أنني كنتُ أحاول أن أسبر شعور "مسلّم" في تلك اللحظة، لقد ظهر بعيداً وجامداً، لكأنه جزء من أفق الحدث، جزءٌ ساكن ومحايد، حاولتُ أن ألتقط طرف ابتسامة شاحبة هنا أو هناك، لكنني عجزتُ عن ذلك، لعلّها ليست مزحة. حاولتُ أن أسترجع المرّات التي رأيتُه يضحك فيها، هل حدث أن رأيته يضحك؟ لكأنه قد صعق لتوّه بمزحة، لم يستطع أن يتمالك معها نفسه، لم يحدث أن شعرتُ بأنه قد عاش هذا الموقف مسبّقاً، أمامنا على الأقلّ، وجدتُني أعود إلى جهازي لأستأنف المحادثة المبتورة مع "مطر" متناسيةً الغضب الذي اعتراني منه قبل لحظات.

- أين ذهبتِ؟

- لقد ضعفت الشبكة، هل لي أن أطرح عليكَ سؤالاً "مطر"؟

- لكِ ذلك.

- هل سبق أن رأيتَ والدكَ في حالة استغراق في الضحك؟

- ما هذا السؤال الغبي؟

- حاولْ، هل سبق أن رأيتَهُ يضحك؟

- حسناً، نعم، أعتقد، لقد رأيتُهُ .. ربّما .. في الحقيقة، لا أدري.

- أنا لا أذكر أبداً.

- لكنه يبتسم.

- أعتقد ربّما.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هممتُ بأن أقول له إنه ابتسم طويلاً مرّة، صحيح أنها كانت ابتسامة حسرة، إلا أنها كانت جلية وممتدّة، حدث ذلك أثناء المرّة الوحيدة التي ذكرتُ له موضوع قتله لزوجته .. لكنْ، كيف لي أن أذكر الأمر أمام "مطر"؟ حقيقة أن ابتسامة والده الوحيدة كانت مرتبطة بموت والدته، بقتلها تحديداً.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب التّحلّل

## -١-

الشارقة

يناير ١٩٧٢

" نَجِّنِي مِنَ الدِّمَاءِ، يَا اللّٰهُ، إله خَلاصِي"

سِفْر المزامير

نشيجٌ متقطّع، يواجهه الآن وهما وحدهما، هو وهي، تدفن رأسها بين رجلَيْها، وتجلس على فراشٍ أرضي مُعدّ لعروس، رائحة الحنّاء نفّاذة، تكاد تذوِّب كل ما دونها من روائح طيّبة، تشعّبت ما بين شَعْرها والثوب والفراش، يشعر هو بالارتباك، لا يعرفُ هل يقترب أم لا؟ ماذا يقول؟ .. ما الذي يعنيه هذا النشيج؟

- الدمع جزءٌ مقتطَعٌ من الروح.

يقول هو .. ترفع هي رأسها .. يتجمّد هو .. تعود هي لتجهش بالبكاء مضاعفاً.

- هل أنتِ خائفة؟

يحاول أن يقطع سيل الدمع، يشعر بأنها قد تموت، إذا استمرّ هذا الماء كله بالتّدفّق، خاف أن تجفّ.

- أنا غاضبة!

قالت هي، أُخِذَ هو .. واجهتْه واقفةً الآن، بعينَيْن متحدّيَتَيْن .. كانت النظرات حارقة، شعر بأن يناير (كانون الثاني) البارد انقلب الآن إلى أحد فصول الصيف اللاهبة، تعرّقت راحتاه .. تندّتْ جبهته، ازدرد لعابه، لا يزال حائراً .. "لماذا الغضب؟" قالها بداخله .. إلا أنه بقي في هذه اللحظة ثابتاً أمامها عاجزاً عن النطق.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- اسمع، يا "مسلّم" .. أنا ما "أباك" .. أقولها لكَ، وليكنْ ما يكن.

لا يزالُ مأخوذاً.

- لا رأي لي في كل ما سبق، لكنني الآن أستطيع، أرني إن كنتَ ستواصل هذه المهزلة أم ستخرج منها كرجل أم ستقبلها كمجرّد فزاعة أخرى؟ .. إذا كنّا سنعيش معاً .. فلا مساس.

هل هذا يعني بأنها لا تحبّه؟ .. يفكّر بكلمةِ "حبّ" .. لا يكاد يفهمها، يعرف أنه منذ سنوات طويلة، كان يميل إلى "نجلاء" قبل زواجها من "هلال" .. بشكل طفولي طارئ وعابر، لأن الرجال الذين لا يبكون .. لا يحبّون أيضاً .. هم يتزوّجون .. يُنجبون .. يعملون .. يموتون .. يعود من شروده .. لا تزال نظرتها الحارقة على حالها .. يهرب منها إلى تفاصيلها الأخرى، الشّفة الممتلئة الوحشية، الوجنة المليئة، النحر، الثوب الملوّن، اليد المرتجفة، الرِّجل المخضّبة .. يتذكّر تفاصيله اليومية معها .. فاترة .. محايدة .. منذ أن استقرّ به المقام هنا، وهي تمضي بينه وبين "سعيد" وسهيل" كشبح، يعرفُ أنها تصغره بسبع سنوات، وأنها بالنسبة إلى بنات جيلها كانت متأخّرة على الزواج .. يتذكّر أن "سهيل" كان دائماً يعلّل بأن المدرسة هي السبب، كان عليه أن لا يسمح لها بأن تصل إلى الصّفّ الرابع، لم يتخيّل أن لوم الناس له لخروجه عن التقاليد المتّبعة، سيجعلهم يعزفون عنها كعروس مقترَحة لأبنائهم، يتذكّر أن "سعيد" لمّح له بأمر الزواج منذ شهر، وبأنه بعد أن فهم تلميح الشقيق، قام بطرح الفكرة على "سهيل"، يتذكّر جذل "سهيل" ومباركته، ويتذكّر الآن بشكل شبه ضبابي .. أنه سمع صوتاً يشبهُ الشهقة قادماً من مكانٍ ما.

- كما تريدين.

- ماذا؟!

- لن أخرج لسعيد لأقول له إني لا أريد أختكَ .. لكِ ما تريدين، يا "علياء".

شعر أخيراً بنظرتها تذوي، عادت الدموع مرّة أخرى، اقترب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابتعدت، هذه المرّة حاولت هي أن تهرب من نظرته المهادنة، تفرّعت لتراقب عن قرب الشارب أعلى الشفة، الجذع المربوع .. "الكندورة" .. اليد الثابتة .. القَدَمَيْن اليابسَتَيْن .. لا تفهم من أين جاءتْه فكرة أن يطلبها للزواج، هي التي لا تذكر أنه قد مدّ إليها أيّ نظرة أو إيماءة ودّ طوال مقامه معهم، تتذكّر تفاصيله بينها وبين والدها وشقيقها كظلّ، هو القادم الطارئ كأحد مخلّفات ذلك الحريق، تتذكّر أن أوّل ما اشتمَّتْه فيه يوم دلف مع الدالفين إلى المنزل في يوم الدفن كان الدخان، وأنها بقيت أمداً كلّما رأتْه تشعر بالاختناق، تتذكّر إصرار "سعيد" على أن يبقى "مسلّم" معهم، وحديثه المتواصل عن أخلاقه وحُسن معشرهِ .. تتذكّر ما سمعته وهي تكاد تمرّ أمام مجلسهم يوم طلب يدها من والدها .. تستعيد انقباض قلبها وهي تشهق أمام تلك المباركة الجذلة للوالد، وتتذكّر أنها نامت ليلتها وهي تحلم بـ "سند" .. ماذا تقول له وهي تواجهه الآن بكامل قلّة الحيلة والمرارة؟ .. انهارت .. عادت لدفن رأسها بين رجلَيْها على الفراش.

- كلّما بكى الإنسان، نقص عمره.

قالها وهو يحوّل حَيْرته مرّة أخرى إلى عبارة بلهاء، قبل أن يتوجّه إلى ركن الغرفة، حيث راح يفكّر كيف لهما أن يخلقا مساحةً خاصّة لكلّ منهما بين هذا الضيق كله، عاد إلى الفراش .. بجهته المقابلة .. جلس بحذر، سكن نشيجها، أدرك أنها في حالة ترقّب الآن، استلقى محدّقاً للسقف بهدوء، رفعت رأسها دون أن تلتفت .. استلقت بدورها مواجهةً الجدار، وفيما يشبه الاتّفاق الضمني، ناما بين أفكارهما الحائرة، الغاضبة والأخرى المتعبة .. بين السقف والجدار.

لم تتغيّر التفاصيل بعد هذه الليلة كثيراً، علّل "مسلّم" رفض علياء له، بزواجهما السريع الذي لم يسبقه أيّ تمهيد من طرفه لها، مع أنها كانت أمامه طول الوقت، فيما ظنّت "علياء" أن مهادنة "مسلّم" لها رغم استفزازها الكبير له في ذلك اليوم عائدٌ إلى عجزه عن تأمين مكان آخر يأويه في حال وقع خلاف بينه وبين "سعيد" ووالدها. تزوّج "سعيد" بعد أخته بشهر، وجاءت "مريم"



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى المنزل، التحقت بها، لتمارس معها دور العروس الجديدة، وتشاركها الواجبات التي تقاسمتاها في ألفة سريعة. لم تكن "مريم" كثيرة الحديث، على عكس "سعيد" الذي ما فتئ ينادي "مسلّم" بالنسيب بفخر ذهاباً وإياباً، تفكّر "علياء" أحياناً بـ"سند"، يفكّر "مسلّم" مراراً بأمّه وأخوته الذين قضوا .. وبـ "خاطر" .. لا شيء جوهرياً يحدث بينهم هنا في هذا المنزل الطيني الصغير، في حين كانت التّحوّلات في الخارج عارمة .. فالشارقةُ أصبحت، قبل بضعة أشهر، جزءاً من شيء ما يُسمّى "دولة الإمارات ". يتحدّث الرجال فيما بينهم عن هذا بتساؤلات أكثر من كونها إجابات حول معنى ذلك، وما الذي سيحدث؟ وما الذي قد يغيّره هذا الأمر حول المركزية؟ فيما تستمع السّيّدات بصمت، حدث مرّة أن عاد "سعيد" مع "مسلّم" بدفاتر صغيرة، وصفاها بجواز سفر الاتّحاد المؤقّت، رنّت كلمة سفر في قلب "علياء" .. عاد سؤالها الجوهري الوحيد ليسطع .. "أينتهي سفرُ سند؟".

## -٢-

تراقب "علياء" يومياً انهماك "مريم" الطفلة بالأمس المرأة بغتة، بتفاصيل "سعيد" في غيابه، تشعر بها تمارس الأمر كلعبة جديدة، تحاول أن تجاريها، تشعر بأن لا شيء يتغيّر، فهي لطالما قامت على شؤون الرجال الثلاثة، تغادر اللعبة سريعاً، تستأنس بوجود "سهيل" ومذياعه الذي بات سنّه يمنعه من الحركة الكثيرة، تشاركهما "مريم" المشهد بعد أن تسأم من لعبتها لبعض الوقت، فإذا بِستّ عيونٍ تنتظر، "سهيل "و"مريم" ينتظران الآيبَيْن ذاتَيْهما "سعيد"و"مسلّم" من نوبة عمل، بعد أن انتظم الأمر بهما في مديرية الشرطة الجديدة، و"علياء" المرتبكةُ بين انتظارَيْن .. انتظار يتوجّب عليها أن تجاري الآخرين فيه، وانتظار أبعد، تودّ لعينَيْها أن تحملاها إليه، حيث قد يحدث أن يعود "سند".

عاد "سعيد" وحده اليوم، استكان انتظار "مريم"، وجزءٌ من انتظار "سهيل الذي أخذ ينسى في أحيان معنى أن يعود أحدهما



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دون الآخر .. تبادره "علياء" بالشرح:

- سيغيب "مسلّم" في نوبةِ حراسةٍ ليلية أخرى.

يراقبهما "سعيد" قبل أن يعقّب ..

- يحبّ هذا الرجل الليل .. لكأنهُ جُبِلَ على ألا ينام فيه.

تبتسم "علياء" .. تشعر بالامتنان "لمسلّم"، وتستغربه معاً، تشعر به أحياناً في حالةِ انتظارٍ ما، هل ينتظر أن تعدل عن رأيها؟ .. وما الذي قد يحدث في حال نفد صبره؟ كانت تنظر هذه اللحظة أيضاً، وتخافها في الوقت ذاته، تعود إلى ما قاله "سعيد" مرّة عن نوبات غضب "مسلّم" في العمل عندما يغادره الصبر، لم يكن وصفاً مطمئناً أبداً، ارتجفت، والفصل هذا فصل البرودة الشديدة .. فيما لا شيء قادراً على امتصاصها في هذه البيوت الهشّة.

تحلّق الأربعة حول طعام الغداء، قبل أن تبتر انسجامهم طَرقات متسارعة على الباب، خرج "سعيد" مسرعاً قبل أن يعود متوتّراً، ليرتدي لباسه الشرطي، لم تفهم ما سرّ ذلك "الارتياع" الذي ارتسم على وجهِ شقيقها، وهو يتملّص من أسئلة زوجته و"سهيل" في طريقه للذهاب، لم تعرف كيف تشرح الأمر لوالدها هذه المرّة، وحّد ثلاثتَهم الانتظار ذاته، حاول "سهيل" أن يكسره، غادر المنزل، رجتْه "علياء" ألا يفعل .. فلم يمتثل .. حاولت "مريم" أن تنصرف عن القلق ببعض الأعمال الروتينية.

عاد "سهيل" قرابة الغروب بوجوم .. هرعت إليه السّيّدتان .. حار في إيجاد طريقة لها أن تبسّط الأمر لهما .. قلّب الكلمات بذهنه .. تردّد قليلاً .. قبل أن يسأل "علياء" أن تُعينه في الوصول إلى مجلسه المعتاد .. اقتربت منه، فهمس ..

- إطلاق نار في "الرملة"، عند .. عند قصر الحكم.

لم تتغيّر ملامح "علياء" كثيراً في بادئ الأمر، ربّما لأنها لم تفهم، قبل أن يلفّها شعور غامضٌ بالروع .. النار ترادف الدم.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يعد "سعيد" في يومهِ ذاك، عاد الانتظار يوحّد ثلاثتهم، يقطع وجومهم مذياع "سهيل"، المذياع الذي كان إرثه الوحيد عن والده "سيف" .. كثير السفر .. الذاهب دائماً إلى البلاد البعيدة والعائد بالعجائب التي كان أحدها هذا الصندوق الذي يأتي بصوت العالم إليهم، حتّى غاب أخيراً .. ليصبح ذكره كأعجوبة مبهمة في خاطر "سهيل" الذي نشأ يتيماً مع صوت هذا الصندوق الناطق، مقابلاً به حداد والدته الوقور، الذي ملأته بالصمت والابتهالات الخافتة، حتّى غابت في صمتها الأخير بدورها بعد زفاف "سهيل " بيوم .. بقي المذياعِ يرافق "سهيل" دائماً في حوادثه الجلل، كان آخرها اليوم الذي غابت فيه الزوجة، تاركةً له الصغيرَيْن، "علياء" و"سعيد" .. يزفر الآن متوجّساً .. أيكون المذياع ذاته شاهداً على غيابٍ آخر؟ حاولت "علياء" بدورها أن تشتّت قلقها، فمضت إلى الغرفة، انتبهت لرائحة الطعام، "مسلّم" لم يعد بدوره، انتابها شعورٌ غامضٌ آخر، بين الخوف والخلاص .. حملت الطعام خارجاً، وحاولت أن تعود لتُطمئن "سهيل"، لكن الأمر غامض فعلاً، فكّرت لو أن لهم مثل ذلك الجهاز المربّع الذي يبثّ الأخبار والأُغنيّات المصوّرة، لربّما كان بمثابةِ النافذة التي قد تدلّهم على شيء ما بدلاً من هذا الصندوق الأعمى.

استيقظت "علياء" نهار اليوم التالي على صوت "سعيد" يُوقِظها في همس، يرعبها هذا الهمس، تذكّر أنه قبل سنوات طويلة، جاءها بالصوت ذاته، ليقول لها بأن " أمّهما ماتت " .. رأت في وجهه الارتياب ذاته الذي واجه به خوفه من موت الأمّ، وعدم الفهم، وشعوره بأن "علياء" تحتاجه الآن، وبأنه عليه أن يضخّم "السين" في أوّل اسمه، لتصبح "سوراً" و"سكناً" و"سلامة" .. ها هو يعودها الآن بالسين الضخمة ذاتها والهمس الوجل والملامح المرتابة، استمعت منه إلى تفاصيل سريعة حول إطلاق النار والهجوم وقنابل الدخان، جلست مواجهةً إيّاه بعد أن أدركت أن شقيقها عاد .. فكان أن أعاد عليها التفاصيل ذاتها قبل أن يستكين في قلق وتردّد .. عرفتْ أن هناك شيئاً ما يخصّها هي تحديداً، شيئاً قد يهدم السور حولها.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما الأمر، يا سعيد؟

- قُتل الحاكم.

- مَن الذي قتله؟

لا نعرف تحديداً .. حصل الأمر في خضمّ الهجوم والحصار، بعد أن داهمت قوّات حاكم الشارقة السابق القصر، قالوا بأنه عاد من القاهرة لأجل هذا الأمر، ذهبنا لهناك بعد أن وصلنا النبأ، حيث وجدنا الشيخ "صقر بن محمّد القاسمي"(06) منهمكاً في إطلاق النار من المكان الذي تمركز فيه من منزله المشرف على قصر الحكم. وُجِّهت إلينا الأوامر بعدها، وبالتنسيق مع القائد "بيرنز"(07) لمحاصرة القصر من الجهة الجنوبية، بقينا هناك إلى حين وصول القوّات الاتّحادية، وبقي إطلاق النار مستمرّاً حتّى منتصف الليل، وصل نبأ وفاة الحاكم فجراً، أُبلغنا بذلك على عجالة في شيء من الروع والقلق، ثمّ حدث أن استلمت قوّات الدفاع الاتّحادية مهمّة اصطحاب الحاكم السابق ومَنْ تبقّى معه إلى خارج القصر(08).

أين "مسلّم"؟

قالتْها كَمَنْ ينتبه فجأة إلى غيابه عن مسرح الأحداث، تردّد "سعيد" مرّة أخرى قبل أن يجيبها:

- "مسلّم" مفقود .. وجدوا بندقيّته فقط، لكنْ، لا أثر له.

استكانت "علياء " في شيء من الصدمة، ثمّ عادت لتضيع بين شعور الخلاص وشعور الرعب .. و"سعيد" بجانبها يحاول أن يعالج ذلك الشرخ الذي نبت فجأة على "السور".

06) الشيخ صقر بن محمّد القاسمي، رئيس دوّار الشرطة والأمن العامّ بالشارقة في الفترة التي سبقت العام ١٩٧٥، حيث تمّ ضمّ قوّة شرطة الشارقة لوزارة الداخلية بعد قيام اتّحاد دولة الإمارات العربية المتّحدة.

07) بيرنز: القائد الإنجليزي لقوّة شرطة الشارقة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

08) تنويه لم يرد ذِكْر تاريخي صريح لتواجد قوّة شرطة الشارقة في موقع الحدث وما تلاه ولكنْ، تم إيفاد ذلك لضرورات المخيّلة السردية.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب التّمزّق

## -١-

الشارقة ٢٠٠٣

ضوءٌ رفيعٌ بقي يضيء الفاجعة .. قبل أن ينقطع مع الغروب في هذه الغرفة الخالية إلا من رائحة الغبار وقطع أثاث مهجورة .. ممزّقة ومتناثرة، لم يتخيّل أن تكون المرّة الأولى هكذا، ليس بهذه الطريقة، ليس وهو يكاد ينسحق تحت وطأة ذلك الجسد .. ليس كمفعولٍ به .. كان الأمر أشبه بالطعنة، كرمحٍ أخذه فجأة، تصاعدت الرائحة الكريهة، زاد وقع اللهاث، أراد أن يصرخ، أن يبكي، أن ينقلب مواجهاً إيّاه، ليسدِّد له اللكمة حتّى يستطيع أن يفلت، لكنه كان قد ثبّته بضراوة، وهو يضع النصل الرفيع بالقرب من عنقه، أغمض عينَيْه، وراح يئنّ في الوقت الذي كان هو بجسده متصاعد الرائحة يُصدر صوتاً مستلذّاً أقرب إلى العواء، كيف حدث هذا؟ راح عقله يشتعل مع جسده وهو يحصد التفاصيل التي قادتْه إلى هنا، الوجوه الغريبة الكثيرة، وجهٌ واحدٌ يلاحقه بالنظرات منذ سنة، وبالأحاديث السريعة الملتبسة بين العربية والأوردية، الابتسامة التي كان يسدّدها له بدقّة، هو "مطر" الذي يكاد يصبح غريباً مع والده في حَيٍّ، غادره أهله، وراحت تتكدّس فيه تلك الأعداد الهائلة من العمّال الذين راحت تجمعهم شركات المقاولات في تلك الأحياء بالباطن لتوفير النفقات .. هل كان عليه أن يجاريه؟ أن يسمح له بأن يستغلّ غباءه وهزاله، وهو يطلب منه أن يتأكّد معه من خُلوّ هذا المنزل من أحدٍ ما، لأن زملاءه في السكن نبذوه .. يغمض عينَيْه بشدّة، يشعر برغبةٍ شديدة بالتّقيّؤ، اهتزّ هو فوقه .. تركه، وارتدى ملابسه على عجالة، وراح يعدو، فيما تكوّر هو على نفسه كجنين، وأخذ ينشج بمرارة .. ارتجف، شعر بأنه يقترب من الموت .. لكنهُ لا يريد أن يموت الآن .. ليس هكذا، ليس بعد ما حدث .. يحاول أن يبحث عن هاتفه المتحرّك الذي كان قد ابتاعه منذ أسبوع، كان قد سقط وهو يدفعه ناحية الأرض، حاول أن يلتقط وميض الهاتف بين



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ارتجافته، وصل إليه أخيراً .. طلب "ميرة".

## -٢-

- ما الأمر؟

- شاهدتُ الضربة الأولى، يا "مسلّم" .. النار العظيمة في منتصف الليل، أعلم أنكَ شاهدتَها أيضاً، في المكان الذي كنتَ فيه، والذي لن تخبرني عنه، ولم أعد أريد أن أعرفه .. لكنني أريد أن أخبركَ الآن بأنني حلمتُ بأطفالٍ صغارٍ يحترقون ليلتها، كان الأمر مروّعاً.

- ظننتكِ ستكتفين بانتقاد غيابي الأسبوع المنصرم.

- أعرف أنكَ ستعود.

- ما الجازم؟

- الكوارثُ لا تنتهي .. لا أعرف إن كان الأمر مصادفةً أم لا، لكنكَ تغيب مع كل طارئ، ثمّ تعود .. أتعلم؟ لاحظتُ أنني لم أسألكَ عن مكان عملكَ حتّى الآن.

- .....

- لا يهمّ .. ستغيب بشكلٍ مؤكّد عندما ينتهي العالم.

- هه .. أتعتقدين أنهُ لم ينتهِ بعد.

- أنا هنا وأنتَ كذلك.. لا أظنّ أنه انتهى.

- سأتحفّظ عن مجاراتكِ.

- اعتدتُ ذلك.

- أتعلمين أن هناك نظرية جديدة مثيرة حول نهاية العالم؟

- ما هي؟

- نهاية العالم ستكون عندما يتوقّف الإنسان عن الشعور بالدهشة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التـي كان يستقيها من التفاصيل البسيطة قبل أن يعقّد الأمور شيئاً فشيئاً، لتتعقّد دهشته البسيطة وأسباب شعوره بالمتعة وما يرتبط بها.

- أتظنّ أن الحـروب هـي شـكلٌ مـن أشكال المتعة العبثيـة التـي ابتكرها الإنسان .. شكل من أشكال الدهشة؟

- ..... ..

- ألن تجيبني؟

- الأمر معقّد، يا قطّتي، أكثر ممّا تتصوّرين.

- لكن الفوضى الآن أكثر تعقيداً.

- أتظنّين؟ .. تلك بلادٌ مفكّكةٌ بالأساس .. بلا هياكل تنظيمية ولا مؤسّسات .. كل شيء مرتبط بوجهٍ واحد وصوت واحد .. بغداد التي اجتيحت، هي ليست بغداد العظيمة التي قرأناها وتخيّلناها.

- هذا ليس مبرّراً .. لا شيء يبرّر الدم.

- لكنْ، للحقيقة وجوه عدّة .. تذكّري هذا .. والعالم ليس ببراءة كُتُب التّصوّرات المثاليـة والنظريـات "الخربوطيـة" للمجتمعـات السّويّة والكون المثالي.

- وأنتَ بلا وجه.

- كفِّي عن ذلك ..

- ..... ..

- "أصيحُ بالعراق .. يا عراق."

- أنتَ تعني "يا خليج".

- هو العراق اليوم.

- هل أذن لكَ "السّيّاب"بذلك؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنتِ تُسبّبين لي الصداع، يا قطّة .. دعيني أشاركِ هذه اللوحة.

- ما اسمها؟

- هذه لوحة "الأمّ العمياء" لإيغون شيلي، أترين كيف تُرضع هذه الأمّ صغارها وهي تشيح عنهم، بسبب العمى؟ هي لا تعرف مَنْ منهم قد تمكّن من الوصول لطعامه ممّنْ لم يصل، لا يمكنها ذلك .. هذه لوحة من سلسلة، اهتمّ فيها "شيلي" برسم موضوع العمى، إن العالم يتعامل معنا بهذه الطريقة، هو ليس مثالياً تماماً، وأظنّهُ أعمى.

- لن تُقنعني فكرتكَ تماماً .. لكنْ، دعني أحزر أمراً.

- ما هو؟

- مات "شيلي" صاحبكَ الجديد هذا صغيراً.

- هههههه أظنّ بأنني أصبحتُ متوقّعاً جداً بالنسبة إليكِ، أنتِ تتقدّمين أشواطاً في تلك اللعبة .. لقد مات "شيلي " النمساوي في فيينا عن ٢٨ عاماً فقط، لكنه رسم دائماً بغزارة، بدأ الأمر معه قبل أن يتجاوز العاشرة، لكأنه كان يدرك بأن هذا العالم الأعمى لن يُمهله الوقت.

- كيف مات؟

- فيمَ يهمّكِ ذلك؟

- هل قُتل؟

- لا، مات عندما انتشر وباء الحمّى الإسبانية في أوروبا، فيما أعقب الحرب العالمية الأولى، المفارقة أن زوجته توفّيت في أثناء حملها بصغيرهما قبله بثلاثة أيّام، لم تُوقِفه الفاجعة عن الرسم .. أدرك أن الوقت داهمه، قضى الأيّام الثلاثة الأخيرة قبل وفاته في حمّى خاصّة به، إذ راح يرسم زوجته المتوفّاة بكثافة.

- مؤسف!



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هو كذلك، لأن أمّنا العمياء "العالم" لن تتمكّن من إدراكهما.

- .....

- لمَ صمتُكِ الطويلُ هذا؟

- "مسلّم" .. أنا آسفة .. يجب أن أترك المحادثة الآن.

## -٣-

لم أعرف كيف كان لي أن أقطع المسافة إلى الأسفل بتلك السرعة، ما بين حشرجة صوت "مطر" وطلبه بأن يتحدّث مع والدي، ومواجهتي لوالدي الذي كان يهمّ بالمغادرة إلى المطار في رحلة عمل أخرى، وقتٌ مَنسيّ، تجاهلتُ دهشته ومحاولته لتفسير نظرتي المرتاعة، ومواجهة أمّي لي بالأسئلة، وناولتُه الهاتف المتحرّك.

- أبي، هذا "مطر" .. هناك شيءُ ما يحدث.

- "مطر"؟!

- "مطر ولد مسلّم" "باباه، بسرعة كلمه".

تناول والدي الهاتف، بنظرة مرتابة أمام عودة "مطر" المفاجِئة إلى الصورة، كان عقله مشتعلاً بالأسئلة، ساوتْه في ذلك أمّي التي بقيت تتأمّلني بحنق مستفهم، لم تدم المكاملة أكثر من خمس دقائق، كان والدي قد توجّه خلالها بأسئلة مقتضبة لـ "مطر"، " ماذا؟"، "أين؟" هل تعرف الشخص؟" .. "هل هاتفتَ الشرطة؟" .. قبل أن يختمها بـ "أنا قادم".

- سآتي معكَ.

تجاهلني والدي تماماً وهو يُخبر أمّي بأن تُخبر السائق الموشك على الوصول عن تأجيل الرحلة .. أخذ الهاتف معه .. أجلستْني أمّي أمامها، وراحت تنهال بالأسئلة التي علّقتْها لحين مغادرة أبي .. فيما بقيتُ أتابعها بصمت قلق وأنا أحاول أن أفهم ما الذي



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حدث، هل أصاب مكروه ما "مسلّم" الأب؟

- ماما .. "مطر" بمثابة أخي، كيف لي أن أمتثل بأن أبتر علاقتي بأخي، كيف نسيتِ أنتِ ذلك الابن؟ .. كيف فعل أبي..؟

نهرتْني أمّي، وجعلتْني أعود لغرفتي، هرعتُ إلى جهازي المكتبي، لأعود إلى "مسلّم"، كان قد غادر، عدتُ لتأمّل لوحة "الأمّ العمياء"، يا تُرى ما الذي لم تدركه هذه الأمّ اليوم هناك في ذلك الحَيّ القديم؟ .. تساءلتُ وأنا أقابل عماها .. بعين "مسلّم" الأب العمياء.

في نهار اليوم التالي، بقي والدي يردّد "كان البحث عن ذلك الآسيوي .. كالبحث عن ابرةٍ في كومةِ قشّ، كثيرون هم .. كثيرون ومتشابهون" .. ومع كل مرّة كان يردّدها، كنتُ أشعر بالغضب ينمو مضاعفاً مع الحَيْرة، ما دخل الآسيوي؟ ما الذي حدث..؟ .. أردتُ أن أسأله، لكنني امتنعتُ.

- ما الذي يعنيه هذا؟ .. هل سيفلت بفعلته؟

سألته والدتي وهو يهمّ بالجلوس إلى طعام الغداء، لم يجبْها أبي .. دفع بسؤال آخر لي:

- لماذا لم تذهبي إلى المدرسة اليوم؟

- لم أستطع أن أنام ليلة الأمس.

نظر إليّ بغضب وارتياب مضاعفَيْن، هو الذي لم ينسَ إلى الآن حقيقة أني لا زلتُ على تواصل مع "مطر".

- ستُنهين طعام غدائكِ، وتعودين إلى غرفتكِ .. مفهوم؟

- لكنْ، أبي؟!!

- ستُنهين طعامكِ، وتعودين إلى غرفتكِ، ولا غياب آخر عن المدرسة .. هاتفكِ سيبقى معي .. أنتِ معاقَبة إلى حين عودتي من السفر .. سيكون لدينا حديث طويل معاً .. كما أنكِ لن تستخدمي هاتف المنزل أيضاً.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا أريد طعامكم.

تركتُ المائدة، وهرعتُ إلى الأعلى، تعمّدتُ أن أصفق باب غرفتي في قوّة، كتعبير أخير عن الاحتجاج.

أعرف أن "مسلّم" الآخر لن يكون موجوداً في مثل هذا الوقت، لكنني وجدتُ نفسي أكتب له في نافذة محادثة، تُظهر عدم اتصاله:

- حدث أمرٌ ما في حَيِّنا القديم .. قد يكون هناك مكروه أصاب "مطر" أو "مسلّم"، رفض والدي أن يخبرني بما حدث .. أنا خائفة.

أرسلتُ العبارة، وأنا أشعر بارتياح، دخلت أمّي بعد دقائق، التفتُّ إليها:

- ماما، ما الذي حدث؟! .. هل حصل شيء ما لعمّي "مسلّم"؟

- لا .. الأمر أصاب "مطر"؟

- ما الذي حدث؟ أين هو الآن؟!

- "مطر" في المستشفى، سيبقى ليومَيْن إضافيَّيْن .. أُخبركِ من واقع أن "مطر" كشقيقكِ، ولا شيء آخر .. صحيح؟

- مستشفى؟! لماذا؟! ما الذي حدث؟!

- سأشرح لكِ الأمر لاحقاً.

- يجب أن أراه.

- لا.

- ماما!!!

- ليس الآن، سآخذكِ إليه ما إن يغادر المستشفى، لا تزال التحقيقات جارية.

- تحقيقات بشأن ماذا؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

علّقتْ أمّي السؤال، وهي تغادر الغرفة، عرفت أن سؤالها الوحيد لن يُجاب الآن، استلقيتُ على سريري .. نمتُ .. حلمتُ بـ "مطر" يصرخ بفزع، كان يردّد "أنا أعمى".



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب النزف

يوم الأربعاء العاشر من ذي الحجّة، يوم عيد الأضحى، سنة ١٣٩١ هـ، الموافق السادس والعشرين من يناير (كانون الأوّل) سنة ١٩٧٢ م:

في الصباح الباكر من ذلك اليوم، هرع الناس إلى مصلّى العيد، فصلّيْنا، وأُلقيت خطبة العيد، فاستمعْنا، فكان جُلّها ذِكْر محاسن المتوفَّى والدعاء له بالغفران. بعد ذلك تمّت صلاة الجنازة، ونُقل الجثمان إلى مقبرة الجبيل، حيث قمْنا بدفنه، رحمه اللّٰه، عاش بيننا تقياً عفيفاً.

في المجلس العامّ، استقبلتُ الناس بين معزٍّ ومهنّئ:

- أحسن اللّٰه عزاءكم.

-نهنّئكم بالعيد.

- جبر اللّٰه خاطركم.

- نهنّئكم بالحكم(09).

الشارقة

٢٦ يناير ١٩٧٢

أيّامٌ ثلاثة .. منذ غياب "مسلّم" .. أيّامٌ ثلاثةٌ واليوم "عيد" .. أيّامٌ ثلاثةٌ وعلياء لا تزال تترنّحُ بين خلاصها والرعب .. لا أثر له، لكأنه صار ظلاً حقيقياً أخيراً، فتبخّر، تحاول أن تهرب من النظرات المشفقة، والأخرى الشامتة، من "سعيد" الذي فاض قلقه حتّى طوّح بكل أمل سكينة ممكنة، من "سهيل" المتسائل عن المستقبل الجديد بعد الدم، وعن مكان "مسلّم" .. عائدان للتوّ من صلاة العيد والجنازة .. شاهدان على ذلك التقاطع المريع بين الموت والحياة، مرتبكان، أخبراها أن لا أثر لـ "مسلّم" بعد، وأن المستشفيات خالية، والبيوت لم تبحْ عنه بشيء .. لم يعرف أحدٌ ما الذي يجب أن يقال الآن، لم تعرف البيوت الأخرى ما الذي

55%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجب أن يُفعَل أيضاً .. هل هو عيدٌ أم حداد؟ امتنع جمعٌ منهم عن ذبح أضاحيهم، فيما اكتفى الآخرون بطقوس ذبح خافتة، خلت من التوزيع المتعارف عليه للحم الأُضحيّة بعد ذبحها، تعود إلى غرفتها، تتأمّل حاجياته القليلة، حتّى في غيابه يخنقها، يبقيها معلّقةً بحبلٍ دخاني رفيع، تتأرجح حوله، وتسعل، تعود بها الذاكرة لسند، لقيده الذي ربط به قلبها وهو مغادرٌ إلى "الهند" .. "سند" ابن التاجر .. الذي ترك بنات الحَيّ جميعهم، واختارها، ليعلّقها .. بين الممكن واللاممكن.

أيّامٌ ثلاثة وهي مأخوذةٌ بأمر هذا الغريب الذي نبت بينهم فجأة، أيّام ثلاثةٌ واليوم "عيد" لا يشبه أعيادهم الأخرى، أيّامٌ ثلاثةٌ و"جواهر" تحدّق في العين التي طالها الخدش والدم، تعاون "أمّها" في النزع والتّطبيب، وهي تستمع لحكاياتها عن مهاراتها التي كان بإمكانها أن تجعلها ممرّضة بارعة في بلادها البعيدة، لولا أن تزوّجت والدها، وأتت معه إلى هنا، لتُنجبها، تصغي لهذيانه المحموم، عن "المحطّة" و"خاطر" و"خديّة" و"هلال" و"سند"، الكثير من "ما الذي تفعله، يا سند؟"، "أيّها المجنون" "الغبي" .. تقترب الآن منه، تميل على هذا الجذع المسجّى وحيداً ببدلته الترابية الممزّقة، تتأمّل الجبهة العريضة والشَّعْر الخفيف المتساقط، الأنف، ترفع يدها وتلمس الضمادة التي أخفت الخدش المرعب، تشعر بقلبها يخفق في كل مرّة، وهي تشعر بتلك الحركة المضطربة لمكان العين الأخرى، مَنْ هذا الرجل؟ .. ما هي حكايته؟ أو أين موضعه من الحكاية التي تناقلها السّكّان بينهم بحذر وترقّب .. ثلاثةٌ أيّام .. كانت هي كل ما تحتاجه هذه الفتاة، لتحبّ هذا اللغز الحَيّ.

أيّامٌ ثلاثة و"خاطر" يسير به من حلم إلى آخر، فيما "سند" يأخذه من كابوس إلى ما بعده، أيّامٌ ثلاثة واليوم "عيد" دون أن يدرك هو ذلك من موقعه الأثيري من اللاوعي، أيّامٌ ثلاثةٌ وهو سابرٌ في هذيانه والحمّى، مرتجفاً، مأخوذاً إلى العمق في ذلك السقوط، في ذهولهم أمام النبأ .. في وصوله مع المجموعة الأولى إلى القصر لمحاصرته مع القوّات القادمة، في تساؤله عن "سعيد" الذي



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تأخّر .. في صدور الأوامر بالبدء بإطلاق النار، في الرصاص الذي تطاير ذهاباً وإياباً بين أروقة القصر، في الأوامر الثانية التي جعلته يمضي وحيداً لتفقّد الباب الذي دخلت منه قوّات الطرف الآخر، المخصّص للأسرة الحاكمة، يعود له المشهد ضبابياً، وهو يشدّ على البندقية مقترباً من المكان، اقتراب متوجّس، قطعته تلك الأنفاس اللاهثة التي شعر بها تُجاوره، التفت ليمينه، فإذا بذلك الشّابّ الذي يساويه في الطول، يقف له متربّصاً بالخنجر، يعود المشهد ليتكثّف في ذهنه المتأرجح بين الحضور والغياب، كان الشّابّ يرتدي تلك الكندورة البيضاء حاجباً ملامحه بلثام صنعه من "غترة" تماثل الثوب في اللون، توقّف "مسلّم" لبضع لحظات وهو يتسائل عن هاتَيْن العينَيْن المتّقدَتَيْن أمامه، يعرفهما، يدرك أنه رآهما في مكانٍ ما، لم يدم سؤاله الذاتي طويلاً، كشف الشّابّ عن لثامه، توقّف "مسلّم" مشدوهاً .. ارتخت يده عن البندقية ..

- سند؟!

- عمّك "سند"، يا ولد "إبراهيم" الغوّاص.

- ما هذا الذي تقوله؟ ما الذي جاء بكَ إلى هنا؟ .. هل أنتَ مع....؟

- عدتُ مع العائدين من "القاهرة".

- القاهرة، لكنْ، ألم تكن في الهند مع والدكَ و"هلال"؟

تدفّقت الأسئلة الحائرة وقتها على لسانه مع تساؤله عن سبب اشتعال "سند" بهذا الشكل .. قطع الشّابّ الأسئلة مرّة أخرى:

- عدتُ في اليوم ذاته الذي سرقتها منّي فيه، كنتُ عازماً على أن أهرب بها معي إلى "القاهرة" .. أردتُ أن أُثبت لأبي أنني لستُ مجرّد قطعة إكسسوار يفاخر بها أمام جماعته، بشهادة تعليمية معتبرة، شهادة لن تعيد لي "علياء" .. وجدتهم يعدّونها لكِ، وجدّتكِ تسلبني إيّاها ..

- "علياء"؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ردّد "مسلّم" بشرود وهو يفهم الآن الحكاية كلها، تلك الشهقة الملتاعة يوم الخطبة والنشيج في يوم الزفاف، الكراهية والإعراض المستمرّ، اللامساس والجفاء، شعر بالمهانة، تماما كما شعر بعبثية ما حاول "سند" أن يفعله، ما اقترفاه هو و"علياء" .. فلا شيء قابلاً لأن يجمعهما إلا المعجزة، معجزة كتلك التي قد تجعل الزيت والماء يمتزجان كسائل واحد.

- أجل، "علياء" .. علمتُ أنكَ تعمل في قوّة الشرطة التي أُنشئَت مؤخّراً، تتبّعتُ الأنباء في القاهرة، علمتُ بالذي هو حاصل بالداخل الآن، وهو موشكٌ على الحدوث، عدتُ مع العائدين .. لأجدكَ .. وها أنتَ ذا .. سأستعيد "علياء" منكَ اليوم.

- لكنكَ لم تفقدها.

لم يبدُ على "سند" أنه سمع عبارته الأخيرة وهو يندفع تجاهه بخنجره، شعر "مسلّم" فجأة بذلك النصل يصيب عينه اليمنى، سقطت بندقيّته التي كان قد أرخاها كونه أمّن "سند" الذي لم يتقاطع معه في حياته السابقة إلا نادراً، انكفأ بألم لا يُحتمَل، وغاب نصف العالم، شاهد النزف بالعين الأخرى، واستطاع أن يحسّ باقتراب "سند" من جديد، تحرّك سريعاً، فسقط "سند" على وجهه قبل أن يعود معتدلاً مندفعاً ناحيته، أسقطه على ظهره، واعتلاه، أمسك بساعده بقوّة، محاولاً أن يفلت من الطعنة الوشيكة، كان رغم الألم والصدمة لا يزال يتفوّق على "سند" في الشّدّة، نتيجة للتدريبات الأخيرة، كان ملامح "سند" الحادّة تزداد اشتعالاً ووحشية، ثمّ كان أن مرّت تلك الرصاصة التي أربكت "سند" لجزء من الثانية، تلك التي مكّنت "مسلّم" من أن يستطيع قلب المعادلة، دفع بسند، واعتلاه، كان المسيطر الآن رغم ذلك الوجع الذي لا يُحتمَل، تراخت ملامح "سند" أمام فورة "مسلّم" المفاجئة، لم يعرف كيف وصل الخنجر إلى يَدَيْه، غام الوجه المرتعب أمامه، غاب وجه ذلك الشّابّ، ورأى وجه "هلال" أسفله، اشتعل به الغضب، جمّد الألمُ الصاعق الفكرةَ في رأسه، هوت يده بطعنة واحدة نافذة، رأى كيف اهتزّ الجسد أسفله في ربكة وذهول، ثم رأى كيف استكان هامداً .. تركه، وانتصب مرتاعاً، هو



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي يرى نصف العالم الآن بين الوجع والنزف، أيكون الذي أمامه هنا هو ذلك الميّت الكامل؟ عاد ليقترب من الجسد الهامد، لكن صوتاً مألوفاً ناداه، التفتَ، فإذا به وجه "خاطر" .. أشار له بأن يتبعه، تبعه مذهولاً بدوره من هذا الظهور الذي لم يتوقّعه، حاول أن يتوازى معه في الخطوة أن يعود لتأمّل وجهه حتّى يرى ما لون عينَيْه اليوم ..

- أنذهب للمحطّة؟

سأله ولم يجبْه، كما كان كلّما حاول أن يوازيه أسرع منه، رغم أنه كان يسير أمامه بخفّة، قاده إلى زقاقٍ خال، حيث ذلك البيت الوحيد المعزول، واجهه الآن أمام باب ذلك البيت، عيناه خضراوان، يحاول "مسلّم" أن يمدّ يده، ليتحسّس وجهه، لكنه شعر به يتلاشى من أمامه، فإذا بيده تلمس الفراغ، لتهوي على باب ذلك البيت بطرقة مدوّية، ثمّ كان أن تكثّف ذلك الألم بعينه اليمنى، شعر بعقله يكاد يتفتّت، تهاوى مع الدمعة الحارّة التي سقطت من عينه اليسرى، شهق في لوعة .. أتكون هذه دمعتهُ الأخيرة التي تنتهي معها روحه، صرخ وخرج صوته مختنقاً قبل أن ينتصب .. صرخث بدورها، والتصقت بجدار تلك الغرفة الصغيرة، تأمّلها وتأمّلتْه ..

- مَنْ أنت؟!

قالا سوياً، هي في سبيل أن تكشف سرّ هذا الغريب الذي استيقظ أخيراً وهو الذي لا يعلم من هذه الشّابّة التي كانت تحدّق فيه بعينَيْها الواسعَتَيْن، تذكّر عينه اليمنى، أراد أن يلمسها، صدّتْه الضمادة .. اقتحمت "عائشة " المشهد الآن وهي تهرع إلى تلك الجلبة، وقفت بينهما، حار "مسلّم" مرّة أخرى مَنْ هذه السّيّدة التي حجز البرقع الذي ترتديه عنه ملامحها، حاول أن يُكمل انتصابه، أن يستردّ خطوته في هذه الغرفة الغريبة الخالية إلا من فراشه الذي استلقى عليه، ندّت شفتا "عائشة " عن حركة، أرادت بها أن تحذّر "مسلّم" من عواقب هذه الخطوة على جسده الهشّ أمام الهذيان والنزف والحمّى، لكن تحذيرها تبخّر وهي ترى "مسلّم"



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ينهار تحت وطئة الدوار الذي اعتراه، اقتربت لتسنده .. قبل أن تلتفت إلى "جواهر" التي لا تزال على حال ذهولها الأوّل.

- روحي هاتيلها ماي.

أربكت العربية الركيكة "مسلّم"، ظنّ بأنه في هلوسة ما، أوقعها به هذا التعب، لكن عائشة التي جلسة مقابلة إيّاه بعد أن ساعدتْه، واصلت الحديث بالركاكة ذاتها وهي تسأله عن اسمه ..

- اسمي "مسلّم" .. أين أنا؟ .. مَنْ أنتُم؟.

- أنتَ في بيتنا ..

أجابتْه "جواهر" التي عادت بالماء، ناولتْه إيّاه .. شعر به يغرق في هاتَيْن العينَيْن الواسعَتَيْن، سقط عن رأسها ذلك الغطاء الداكن الخفيف الذي لم ينجح بتغطية الجديلَتَيْن الناعمَتَيْن فاحمتَي السواد، تناول الماء .. وهو يواصل تأمّل الأنف الحادّ .. انتبه إلى الغمّازة التي كشفت عنها تلك الابتسامة المرتبكة أمام نظرته الساهمة .. طافت بالذاكرة صورة "نجلاء" .. ارتشف الماء بصمت .. حاول أن يستعيد توازنه الذهني:

- يجب أن أعود ..

- إلى أين؟ ..

- إلى القصر .. وقع هجوم.

- لن تجد أحداً هناك.

- ماذا؟ ..

- لقد قُتل الحاكم في تلك الليلة ..

- ما هذا الهراء؟ ..

- لقد صلّوا عليه "رحمه الله" الجنازة اليوم، وتسلّم الحاكم الجديد مقاليد الحكم بعد صلاة العيد .. هذا ما قاله أبناء الحَيّ، وما قالتْه الإذاعات وتلك الشاشات المربّعة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- الحاكم الجديد؟

- أجل .. شقيقه الأصغر .. الشيخ سلطان بن محمّد القاسمي.

- .....

- هل أُصبتَ في الهجوم، ثمّ مَنْ هو "سند"؟ هل هو زميلكَ؟ لقد بقيتَ تهذي باسمه .. وباسم شخص آخر .. امممم، لا أذكر اسمه تحديداً.

أدرك "مسلّم" ما حدث بشكل عامّ قرب القصر، لكنْ، ما الذي قد حلّ بسند الآن، يجب أن يعود لتفقّده .. أين "سعيد"؟ كيف لم يبحث عنه ليجده؟ .. هل كان "خاطر" موجوداً فعلاً في آنها؟ .. "علياء" .. يا إلهي "علياء" .. حاول أن يستعيد توازنه الذهني من جديد .. لكنْ، عاوده شعور تفتُّت عقله، كرّر محاولة أن يلمس عينه اليمنى، صدّته الضمادة مرّة أخرى.

09) سرد الذات / الشيخ الدكتور سلطان بن محمّد القاسمي، ص ٤١٨، ٤١٩.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب التهاوي

كـانت بلـدية الشـارقة قـد أطلقـت حملـة علـى مسـتوى الإمـارة للتفتـيش علـى الشـقق، التـي يقـوم أصـحابها بـإغلاق شـرفاتها بالكامل، باستخدام الألواح الحديدية أو الخشبية، أو موادّ البناء العادية، بهدف استغلال المساحات الخالية في الشّقّة، وبالتالي زيادة عدد المستأجرين في الباطن.

وأكّد المهندس سلطان المعلا أن إجراء أيّ اضافات على الشّقّة، مثـل إغـلاق الشـرفة أو تحويـل الصـالات إلـى غـرف للنوم، يُعدّ مخالفة صريحة لقوانين البلدية، فضلاً عن أنه يشكّل خطورة على سـلامة القـاطنين فـي البنايات، إضافة إلى تشويه المنظر العامّ للمدينة.

وقال إن البلدية تتعامل مع مسألة الإيجار من الباطن، بِعَدِّها خرقاً لقـانون الإيجـار رَقْم ٢ لسـنة ٢٠٠٧، الـذي ينـصّ علـى منـع تـأجير الشقق من الباطن لأيّ شخص من الأشخاص، ويشترط أن تقتصر العلاقـة الإيجاريـة بـين المـؤجِّر والمستأجر بموجب عقد إيجـار مـوثّق مـن بلـدية الشـارقة، موضِّحاً أن هناك عقوبات وغرامات كبيرة تُفرَض في حال ثبوت تأجير أيّ شقّة لأكثر من عائلة أو لعدد من العمّال العُزّاب، بِعَدِّ ذلك اعتداء على الأنظمة واللوائح القانونية(10).

## -١-

الشارقة ٢٠٠٥

آلافٌ من السحنات تعبر أمامه .. ملايينٌ منهم يكاد يشبههم، ولا يشبهونه، وجوه متعبة بغضب، وأخرى رائقة رغم ذلك الشقاء الواضـح، يسـاكنهم فـي البيوت الضّيّقة، يجاورهم فـي الحارات التي غادرها سكّانها الأصليون، ولا أحد منهم له ذلك الوجه الذي لا يمكن له أن ينساه، كل ألم يعبره مرتبط به .. كل غثيان، كل صدمة، كل تعثّر، كل خدش، كل نزف، كل انهيار، كل ضغينة، كل



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اشتعال، كان قيده وخلاصه، وخلاصه لن يكون إلا لو وجده، كان عازماً على ذلك منذ الليلة الأولى التي تسلّل منها هارباً من المستشفى. ظنّ أن مهمّته ستكون سهلة. كان مستعدّاً لأن يدفع الثمن أيّ ثمن مقابل أن يظفر به. عرف أنه لا بدّ أن رفاقه قد ساعدوه على التّخفّي، بين بحر من الآخرين أقرانهم. قرّر أنه سيكون منهم، ارتدى ما يرتدونه، تعلّم لغتهم الكثيفة، في مجتمع نجحوا في جعله كقطعة من أرضهم البعيدة. أكل ما يأكلونه. عمل معهم. اخترع له حكاية تشبه حكاياتهم. كان يدرك يوماً بعد آخر كم صار يشبههم، رغم أنه ليس منهم. غرق في جنونه اللحظي ذاك حتّى صار حياته كلها، دون أن يعثر له على أثر، لكأنه لم يكن كائناً حقيقياً، كلهم كانوا يبدون لكأنهم كائناتٌ غير حقيقية، في لحظة قد ينسى كل ما يتربط بهم، كانوا ككتلة واحدة كثيفة جدّاً من الغبار، رغم تواجدهم في كل مكان إلا أنهم من السهل أن يزالوا دون أيّ إثبات على وجودهم السابق. وحده محمّلاً بدافع الانتقام العارم، جال الإمارات كلها، جرّب المِهَن الصغيرة جميعها، لم يكن من السهل أن لا يجد عملاً لا يسأله فيه أحدٌ حتّى عن اسمه، ففي مرّة كان "كومار" الذي جاء كطبّاخ قبل أن يقرّر الهرب من شرعية وجوده بحثاً عن عمل آخر، يؤمّن له دخلاً أعلى لعائلة، كان هو أكبر أبنائها ومصدر دخلها الوحيد، ومرّة كان "مشتاق" الذي جاء كسائق، ثمّ " شبير" الذي جاء مزارعاً، كان جميعهم ظاهرياً، وكان "مطر ولد مسلّم" في قرارة نفسه، الصبي المنتهك الذي لن ينتهي من تقمّص الأدوار حتّى يصل إلى ذلك الوجه الوحيد الذي ليس له أن ينساه، ثلاثُ سنوات، لا يشعر بها، يشعر بالعار وهو ابن أبيه الوحيد، ثمّ يحقد عليه، لأنه لم يكن متواجداً، ليحميه في آنها، وبالمرارة لأن التي لجأ إليها بين الآخرين جميعهم كانت "ميرة" .. كيف لها أن تشعر به رجلاً بعد الآن .. يتذكّر مغامراتهما الطفولية، ثقتها اللامحدودة به، كيف له أن يستردّها؟ إن لم يجده منتزعاً كرامته بيَدَيْه، كيف؟ .. كان السؤال يكبر، ويتفرّع بداخله دون أن يُدرك أن مَنْ يبحث عنه منذ سنوات كان طوال ذلك الوقت في السجن .. كان محظوظاً دائماً بالنجاح في الهرب من مداهمات الشرطة وفرق البلدية للعثور على



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصحاب الإقامات غير الشرعية، والكشف عن مساكن التأجير العمّاليّة بالباطن في تمهيد لذلك القانون الحاسم الذي سيُصاغ في سنوات لاحقة، لم يعرف أن ذلك الحظّ، كان لعنته الأبدية أيضاً.. وأنهُ كان مفتاح ضياعهِ الممتدّ .. بين سذاجة فكرته، وعمق كراهيّته، وفوضى الشخوص والوجوه.

## -٢-

لقد وُلدنا للشتات

للتّأسّف على سلالة تاهت

ما الذي فعلناه ببعضنا البعض

في كوكب متاح جدّاً

للقيام بأمور أخرى؟!

"نعومي شهاب ناي"

وضعتِ الحاسوب المحمول أمامَها على المكتب الصغير، عدّلتْ من وضع شَعْرها الأسود بخصلاته المتناثرة، ثمّ أشعلت الكاميرا الأمامية للجهاز، كان هو هناك أيضاً .. بملامح الوجه التي تجمع بين الحدّة واللّين، الشَّغَف واللامبالاة، عينان متوسّطتان كاملتان وسليمتان .. تقابل سعة عينَيْها أنفٌ حادّ، يقابل أنفها المهادن، وشفتان رفيعتان، لا تشبهان شفتاها المكتنزتان.

- أهلاً، يا قطّة.

- مرحباً.

- ما سرّ هذه الابتسامة الخبيثة الواسعة؟

- محدّثتُكَ الآن .. طالبة رسمية في كُلّيّة الفنون الجميلة.

- أخيراً .. لقد فعلتِها!

- قلتُ لكَ إن الأمر لن يكون على ابنة وحيدة لرجل، وُلد وحيداً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أيضاً.

- هذا صحيح، دائماً ما أنسى ذلك، تُكثرين الحديث عن أقارب أمّكِ دون ذِكْر لأقارب والدكِ.

- على قولته "مقطوع من شيرة".

- لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً.

- هو يقول بأنه صحيح، وبأن ما يهمّ الآن هم اسمه في عالم المال الذي صنعه "بكدّه وشقاه".

- علاقتكما ملتبسة.

- دائماً.

- هذا أمرٌ نادر الحدوث بين أب وابنته .. أن لا تكون معجبته الأولى.

- لكنه قابلٌ للحدوث .. أنا أرفض اختياراته لي .. أظنّكَ أفسدتَني بمسألة الاختيار هذه، يا "مسلّم".

- هههههههه. .. ربّما.

- .....

- ما الأمر؟

- كان "مطر" ليكون طالباً اليوم في كُلّيّة القانون.

- أوه ..

- لا أعرف كيف اختفى بهذه الطريقة .. لكأنه لم يكن.

- كيف حال "مسلّم"؟

- لا يزال على حاله.

- المحطّة؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نعم، يريد أن يذهب للمحطّة التي زارها مع "خاطر" وهو صغير، ويسأل عن "سند" و"مطر" قبل أن يبكي طويلاً .. ثمّ يصمت طويلاً .. هذا هو حالي معه في غالب الزيارات.

- ألم يأتِ على ذِكْر حكاية عينه المصابة بين الهذيان.

- لا، أبداً.

- ربّما لو تمكّن من الخروج، لعرفنا مكان محطّته تلك على الأقلّ ..

- لن تسمح دار المسنّين له بالخروج إلا بصحبة أحد أقارب الدرجة الأولى .. وهذا القريب هو "مطر" الغائب كما تعلم.

- علينا أن نعرف مَنْ هما "سند" و"خاطر" أيضاً.

- سألتُ والدي عن هذَيْن الاسمَيْن مراراً .. قال لي أن لا شيء يعرفه عن تاريخ "مسلّم" ومعارفه قبل أن ينتقل إلى حَيِّنا القديم مع زوجته "جواهر" التي توفّيت بعد ولادة الصغير نتيجة للحمّى .. في حين تقول أمّي بأنه قتلها بإهماله للحمّى، لم يستنجد بهم، ليعاونوه في أوّل التعب .. عندما كنتُ صغيرة، ظننتُ أنه لهذا القتل أبعاداً أخرى.

- ظننتُه قتلها فعلاً؟

- أعتقد .. ولم أرغب بأن يعرف "مطر" ذلك، شعرتُ بأنه عليّ أن أحميه .. لم يكن لهُ أحدٌ سوى "مسلّم"، كيف كان سينجو لو أن صورته تهشّمت؟

- عالم من المقطوعين من أشجار.

- يبدو ذلك.

- لكنهُ لم ينجُ في الأحوال كلها، أليس كذلك؟

- لا أعلم .. لا أريد أن أعتقد شيئاً من هذا .. أشعر بالتيه يتفاقم.

- نيتشه.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا؟

- نيتشه يقول "إن الإنسان التائه لا يبحث مطلقاً عن الحقيقة، إنه يبحث فقط عن نغمة / أُغنيّة .. تُعينه على الطريق".

- أنتَ تعني بأن عين "مسلّم" الغائبة هي تلك الأُغنيّة المفترَضة .. أم هو غياب "مطر"؟

- ربّما كلاهما معاً.

- أنتَ تُبسّط الأمر كثيراً .. لكأنكَ تمنح لحياتي كلها معنى عبثياً .. لا يبدو الأمر بداخلي أبداً بمثل تلك الطريقة.

- متى تزورين "مسلّم" في المرّة القادمة؟

- بعد غد .. يعرف لي السائق موعداً ثابتاً لتلك الزيارة.

- ما رأيكِ بأن نزوره معاً؟

- لا!

- عنيدة.

- "البركة فيكَ".

- "أُبحرُ مثل سفينةٍ عبر اسمكِ .. دعيني أرسُ هناك".

- .....

- ماذا تفعلين؟ أستطيع بأن أرى حركتكِ على لوحة المفاتيح.

- أبحث عن صاحب العبارة.

- "نيردوا" .. "بابلو نيرودا" .. عاش طويلاً .. كاملا ومُبصِراً.

- لقد خسرتَ هذه المرّة.

- أجل ..

- هاتفكَ يرنّ ..



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أجل .. المعذرة "ميرة" .. سأغادركِ الآن.

- غادرها بربكته المعتادة.

## -٣-

كانت اللافتة التي تتموضع بهدوء في أوّل الشارع الرئيس الذي يقود إلى المتحف في المنطقة التي تحمل اسم "المحطّة" ذاته، والتي كانت جزءاً من ضاحية "القاسمية" في الشارقة .. هي ما أذن لقلبي بالقفزة الأولى، لم أستطع أن أخفي توتّري عن السائق، وأنا أفتح زجاج النافذة وسط الزحام وتفاصيل العابرين من مختلف الجنسيات بين الطُّرُقات والمركبات في هذه المنطقة المليئة بالعمارات السَّكَنية بكثافة.

- هل تريدين أن أغلق التكييف؟

- ماذا؟

- لقد فتحتُ النافذة، هل تكييف المركبة بارد؟

- لا .. لقد اعتقدتُ أنني قد رأيتُ شيئاً ما في الشارع.

عدتُ لأُغلق النافذة، مستويةً في مقعدي في المركبة التي حملتْنا من الشارع الرئيس إلى التّفرّع الذي سيقود للمتحف، أفرك يَدَيّ الآن ببعضهما، وسيلتي الوحيدة لإفراغ التّوتّر بعيداً عن فضول "أصغر" .. لم أعرف هل هو توتّر التوق لرؤية "المحطّة" التي لم يتوقّف "مسلّم" الأب .. عن الهذيان بها .. لعلّها تكشف لي شيئاً عن تلك العين الغائبة، أم أنه توتّر الرعب أمام سطوة الحضور الوشيك لـ "مسلّم" الآخر .. أزفر وأستذكر مكالمته الخاطفة:

- قطّتي .. آتيكِ اليوم بشيء خطير.

- ما هو؟

- عرفتُها.

- ما هي؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- المحطّة ..

- محطّة "مسلّم" .. كيف؟

- كم عمر "مسلّم" بالضبط؟

- لا تجبْ على سؤالي بسؤال.

- الأمران مرتبطان.

- لا أعلم تحديداً، لكنه قد يكون على مشارف السبعين.

- حسناً، هذا يعني أنه قد أدرك نهاية الثّلاثينيّات الميلادية وما تلاها، لنقل إن إدراكه للعالم حوله بدأ مع الأربعينيات الميلادية.

- أظنّ ..

- وهو من مواليد الشارقة.

- "مسلّم"، أرجوكَ .. ما علاقة هذه الأسئلة بالمحطّة؟

- هل سبق لـ "مسلّم" أن عاش في مكان آخر غير الشارقة؟

- لا أظنّ ذلك، ليس بحسب ما أعرفه.

- اسمعي، يا قطّة .. سأجيبكِ، لكنْ، بشرط.

- ما هو؟ ..

- أن نلتقي في تلك المحطّة.

- نلتقي في المحطّة؟ .. هل هي مكان لا يزال موجوداً.

- طبعاً.

- لا.

- لا إجابة لكِ، إذنْ.

- قبلتُ.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- بهذه السرعة؟

- " مسلّم" كفَّ، أرجوكَ .. هيّا، أخبرني.

- "المحطّة" هي أوّل مطار للنقل الجوّيّ في الشارقة .. وهي الآن متحف المحطّة الذي تمّ افتتاحه قبل سنوات قليلة.

تتوقّف المركبة أمام بوّابة سوداء، تتوسّط جداراً أبيضَ مصمتاً.. ولافتة كبيرة، تشير مرّة أخرى إلى أننا أمام "متحف المحطّة" .. يشير لي "أصغر" بأننا وصلنا بناءً على إرشاداتي السابقة، أشكره، آمره بأن يذهب إلى أيّ مكان يرغب به على أن يعود بعد ساعَتَيْن ريثما أنتهي، أُسوّي من عباءتي السوداء وغطاء رأسي الذي انسدل على كتفَي في الطريق وأنا أغادر المركبة.

-أخيرا .. أنا أمام محطّتكَ، يا "مسلّم".

أعبر البوّابة السوداء، يقابلني الحارس مشيراً نحو بوّابة زرقاء توازت مع السوداء .. حيث كُتبت عبارة الاستقبال بخطّ واضح للداخل .. أدلف إلى هناك، حيث واجهني أمام الشّبّاك شابّ مبتسم.

- أريدُ تذكرةً واحدة، لو سمحتَ.

- هل أنتِ الآنسة "ميرة"؟

- كيف عرفتَ بأنني "ميرة"؟

- لقد سبقَكِ سيّدٌ دخل قبل قرابة النصف ساعة، ودفع سعر تذكَرَتَيْن، واحدة له والأخرى تركها هنا باسمكِ.

- أوه .. نعم، أنا "ميرة"، شكراً.

- العفو .. تبدأ الزيارة من ذلك الباب أقصى اليمين من الساحة، حيث حظيرة الطائرات.

يقول لي الشّابّ وهو يناولني التذكرة مشيراً إلى خريطة تفاصيل المكان الكبيرة التي قابلت الشّبّاك، أخذتُ منه التذكرة، تضاعف



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

توتّري، هو هنا، إذنْ، هل عليّ أن أهاتفه؟ قلتُ لنفسي وأنا أتجاوز مكان البوّابة والحارس والشّابّ، وأقف في منتصف تلك الساحة المربّعة التي أحاطت بها مجموعة متشابهة من الأبواب الزرقاء بلونها الفاتح المهادن، رفعتُ رأسي .. واجهتْني السماء بزرقتها المحايدة هي الأخرى، في وقتها هذا الذي يلي العصر بقليل، ويقترب من الغروب. انتبهتُ لبرج المراقبة الآن، كنتُ أشعر بأني في مكان هو أقرب إلى مجسّم لمطار منه إلى مطارٍ حقيقي، مستندة بالمقارنة إلى مطار الشارقة الحالي ومطار دبي، كيف كان أن اتّسعت هذه الساحة، لتكون أوّل مطار لسلاح الجوّ البريطاني والنقل المدني وقاعدة عسكرية لقوّات ساحل عمان الشرطية وغيرها .. تجاوزتُ فكرتي، ومضيتُ باتّجاه الغرفة في الزاوية، واجهتْني العبارة "حظيرة الطائرات" .. اقتربتُ من الباب، دلفتُ، بُوغِتُّ أمام سعة القاعة التي ضمّت عدداً من الطائرات، كنتُ أظنّهم سيعرضون مجسّمات للطائرات هنا، فإذا بها الطائرات الحقيقية التي كانت، مصقولة لكأنها جديدة، طائرة صغيرة تدلّى من السقف، لكأنها لعبة، فيما تموضعت الأخريات في أناقة "هل شاهد "مسلّم الأب" هذه الطائرات في أيّام خدمتها الفعلية؟" انتبهتُ لحركة في المكان، التفتُّ، فإذا بالمشرف على القاعة يحيّيني بابتسامة

- مرحباً .. هل هناك أحدٌ غيري في المكان؟

- أجل .. هناك شابّ .. إنه هناك بالداخل.

يقول لي ذلك وهو يشير إلى الأعلى، في ارتفاع توازى مع تلك الطائرة الصغيرة المعلّقة، سلّمٌ يفضي إلى نصف هيكل لطائرة أخرى، هو هناك، إذنْ .. أقولها وأنا أتوجّه بحذر نحو ذلك الهيكل، حاولتُ أن أغالب توتّري بقراءة معلومات الطائرات المعروضة، بعضها جاء إلى الخدمة مع افتتاح المحطّة في الثّمانينيّات، البعض الآخر في الأربعينيّات، والخمسينيّات وصولاً إلى السّبعينيّات، حيث انسحبت بريطانيا، وأُغلقت "المحطّة" إلى حين إنشاء مطار الشارقة الدولي الجديد، في منطقة أخرى، اقتربتُ من ذلك السّلّم الذي أفضى لمقدّمة الطائرة المعلّقة أعلاه، رحتُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصعد السّلّم الذي كان في أصله سلّماً للطائرة نفسها، دلفتُ للهيكل أخيراً، وقد كان هناك .. "مسلّم" بكامل حضوره .. واجهني في استفهام .. ابتسمتُ بتوتّر، كان كما كان دائماً في إطلالته الشبكية، الملامح الحادّة التي تتفاوض بين الجدّيّة والتّهكّم، أستوعب أنا الآن طوله، وجذعه المربوع .. كان رسمياً جداً في مظهره بـ "بالكندورة" البيضاء المرتّبة .. و"الغترة" البيضاء أيضاً، وذلك "العقال" المتوسّط .. في هذه الأثناء، شعرتُ به لا يزال مستفهماً، وهو يحاول أن يتناول تفاصيلي التي تظهر أمامه الآن بأبعادها الثلاثة، قبل أن يظهر كَمَنْ أدرك مَنْ أنا، لكنه ورغم هذا الإدراك كان قد بقي جامداً بعينَيْن شديدَتَي التركيز تجاه عينَيّ، كان يبدو كَمَنْ يحاول أن ينظر إلى منتصفها تماماً إلى حيث تمركز ذلك البؤبؤ الصغير، نظرة حاولتُ أن أكسرها أو أن أكسر عينَيّ عنها إلا أنني بقيتُ أشاركه ذلك الجمود.

- أهلاً "ميرة".

قالها فجأة، وشعرتُ كَمَنْ خرج بحركة مباغتة إلى السطح بعد غرق وشيك، مَدّ يده مصافحاً بتلقائية، ومددتُ له يداً حذرة .. هل نستطيع أن نُطلق على اللمسة نعتَ الغموض؟ وجدتني أفكّر وأنا أحار أمام شعوري المبهم تجاه اليد التي كانت تشدّ على يدي، شعرتُ بأنه يضغط عليها بنعومة، لكنني، في الوقت ذاته، كنتُ أشعر بما يشبه الوخزة الخشنة.

- ها .. إلى أين نتّجه، نحن في قمرة القيادة؟

قالها كَمَنْ يستكمل حديثاً، لا كَمَنْ يبدؤه.

- هكذا فوراً؟

- أجل، ما الذي سيكون غير ذلك؟

توقّفتُ قليلاً أمام استفهامه، أظنّني كنتُ أريده أن يبدأ حديثاً مختلفاً عن موضوع "مسلّم" الأب لوهلة، ورغم الفضول المتّقد والمحدّد الذي قادني للمكان، لم أستطع ألا أجدني في مرّات كثيرة قبل هذه اللحظة أتخيّل أشكالاً مختلفة للحوار الذي



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سنبدؤه معاً على هذه الأرض الراسخة، دون أن أتصوّر أنه قد يكسر هذه التّخيّلات كلها، بحوارٍ بائت، مستكمل، لكأنه لا شيء جديداً، يستحقّ التّوقّف عنده هنا بيننا، الآن في هذه اللحظة الطازجة .. لكنْ، أليس هذا هو "مسلّم"، الرجل الذي ينجح دائماً في البقاء خارج دائرة التّوقّعات؟

- لم أتوقّع.

بدت الكلمة لكأنها تسرّبت من الفكرة في رأسي.

- ما الذي لم تتوقّعيه؟

- أن .. أعني .. أن تكون هذه الطائرات كلها هنا.

- ليست الطائرات وحدها .. ألم تلمحي سيّارة تعبئة الوقود وأوّل سيّارة إسعاف خاصّة بالمكان؟

- لم أنتبه لها.

- حسناً .. دعينا نغادر هذه القمرة، لنعاينهما، بدلاً من أن أشعر بأنني أعاين حادثة تحطّم هنا.

انتبهتُ فور أن نطق بهذه العبارة إلى الهيكل الذي فصل بيننا وبين مكان الطّيّار ومساعدة حاجز زجاجي شفيف، كان هناك غبار كثيف يتشعّب في التفاصيل، وبعض الأجزاء البالية التي تشي بقِدَم هذا الهيكل، ثمّ كان هناك مكتبٌ صغير جانبي خلف مقعد الطّيّار غطّت الطاولة الضئيلة في المكتب الهامشي خريطة مهترئة أيضاً .. التفتُّ لأسأله وهو ينتظرني أمام السّلّم، لأتقدّمه في الهبوط .. لكنني انتبهتُ إلى الرائحة، رائحة عطره الباهتة، كانت كأثر يصعب الإمساك به، أثر لطيف، لكنه بعيد، وقد كانت المرّة الأولى أيضاً التي أفكّر بأمر الرائحة التي ترتبط بحضورنا الحيوي الآن، وجدتني أحاول أن أتذكّر أيّ العطور كنتُ قد اخترتُ اليوم، هل تخيّل "مسلّم" أيّ عطر أضع كلّما تحدّثنا سوياً سابقاً؟ .. حاولتُ القفز على الفكرة، وأنا أتابع نظرته التي بدت لكأنها قادرة على التّسرّب إلى أفكاري .. دفعتُها بالسؤال.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يا تُرى ما علاقة "مسلّم" الأب بذلك كله .. أتظنّ أن إصابة عينه حدثت هنا؟

- قد تكشف لنا أجزاء المتحف الأخرى التفاصيل.

اتّجهنا إلى مشرف القاعة، الذي قال لنا أن ندخل الغرفة رَقْم ٢٤" من المتحف، امتثلنا لتوجيهاته .. كان الباب المراد قريباً جدّاً، بابٌ أزرق آخر، لكن العالم بداخله مختلف، .. توقّفنا أمام ممرّ طويل جدّاً .. ممرّ مستقيم وأبيض، في حين استوت على جوانبه اليسرى أجزاء من المعروضات التي وفّرها المتحف، كان أوّل ما واجهنا "معرض الصور" الذي تناول معلومات أوّليّة عن الطيران المدني في بريطانيا تحاذي صوراً متنوّعة بالأبيض والأسود .. تأمّلناها بهدوء .. قال لي دون أن يشيح ببصره عن أحد تلك الصور الصغيرة في البراويز ..

- تبدين مختلفة عن الصور ومحادثات الفيديو.

- حقّاً؟ .. ما وجه الاختلاف؟

- لقد بدوتِ دائماً كقطّة .. أنتِ الآن سيّدة.

تجاوزتُ عبارته، التي كانت تلائم طزاجة اللحظة التي ضاعت قبل قليل، شعرتُ بأن الأوان قد فات لملاحظة كهذه، ثمّ رحتُ أشعر بغيظ طفيف يتسرّب من مكان ما عميق ومبهم بدوره .. حاولتُ أن ألجمه، وأنا أتقدّم لقسم آخر، ضمّ بدايات إنشاء المحطّة، وما احتوته، وأوّل رحلة خرجتُ منها، تبعني بهدوء .. سأل:

- متى يعود "أصغر"؟

- بعد ساعة أو ساعَتَيْن على أقصى تقدير.

- متى تحصلين على رخصة قيادتكِ الخاصّة؟

- قريباً ..

- إن لم ترسبي مرّة أخرى ..



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هههههه، لا .. "الثالثة ثابتة".

- ما حجّة غيابكَ؟

- العمل على مشروع دراسي للجامعة في متحف المحطّة.

- ما الرابط بين المتحف والفنون الجميلة؟

- لا أعلم .. جاء الأمر هكذا.

- قطّة ماكرة.

- لقد قلتَ للتّوّ بأنني أبدو كسيّدة.

- السّيّدة القطّة .. ربّما لأنها المرّة الأولى التي أراكِ بمظهركِ الرسمي.

- مظهر رسمي "مرّة وحدة" .. أنتَ تبالغ.

- حسناً .. أتعلمين؟ قد يكون موضوع قيادة الطائرة أسهل .. أيكون "مسلّمنا" طيّاراً يا ترى في مرحلة من مراحل حياته؟

- لم يكن ليقول، بأنه يريد أن يزور المحطّة التي رافق "خاطر" ذاك إليها وهو صغير.

- هممممم، صحيح.

واصلنا التّنقّل بين الأجزاء التي شكّلت قوام المحطّة الجوّيّة وطبيعة الحياة اليومية فيها، حتّى وصلْنا إلى جزء بدا غير منسجمٍ مع بقية أجزاء المكان .. علب معدنية مصطفّة إلى جانب بعضها البعض، تواجه ما تمّ رسمه بشكل مستطيل كشاشة .. كان الشرح بهذا الجزء يقول "سينما الشارقة " ..

- سينما؟

- حسناً، لقد ظننتُ بأنني قد بدأتُ أهذي لكثرة التفاصيل في هذا المكان، لكنكِ تشاهدين ما أشاهده صحيح؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أجل ..

اقتربْنا لنقرأ الوصف، ونحن نشاهد بجانبه صورة بالأبيض والأسود لمساحة ترابية وجدار، وتلك العلب المعدنية المصطفّة بمحاذاة ما ظهر كأنه البرج الخاصّ بالمحطّة، "تعتبر سينما الشارقة أوّل سينما في منطقة الإمارات المتصالحة، والتي بدأت عملها عام ١٩٤٥ م".

- غريب.

- ليس تماماً، أظنّني أستطيع أن أفهم.

- ماذا؟

- لقد قرأنا قبل قليل أن المنظّمين لسلاح الجوّ الملكي البريطاني كانوا يخدمون إلزامياً سنة كاملة في محطّة الشارقة، شبّان مليؤون بالحياة والتّطلّعات في وسط هذه المنطقة الساحلية التي لا يعرفون لغة أهلها، ولا يتواصلون معهم، كانوا بحاجة لخيط رفيع يربطهم دائماً ببلادهم التي تطلّ علينا بترفّع، إلى جانب تلك الفسحة اللازمة من الترفيه في أرضٍ، كانت موارد الرفاهية فيها بمثابة المعجزة.

- تحليلكَ سريع ومنطقي، لكنْ، ما علاقة "مسلّم" بذلك كله؟

- لا أعلم، قد يكون هناك رابطٌ، وقد لا يكون .. لكنْ، لنفترض أن "مسلّم" قد اكتشف هذا العالم وهو صغير .. لنفترض أنه رأى الطائرات الضخمة في ذلك الوقت، لنفترض أنه عرف أنه هناك عالم شاسع مختلف عن عالم البحر وسعته وغموضه .. أن هناك مكاناً على اليابسة للغموض والسعة والغرابة أيضاً، وأن هذه اليابسة تقود للسماء مباشرة.

- حسناً.

- أتذكرين ذلك الكتاب الذي أشرتُ لكِ به منذ فترة .. لإيريك فروم.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- "أن تمتلك أو أن تكون"؟

- نعم .. في زمن الحياة ذاك، كان كل شيء يركّز على أن تحوز على المادّة التي ستعينكَ على العيش، أنتَ تسخّر حياتكَ لذلك بشكل قاطع، كان السّكّان يظنّون أن ما يسعون إليه من موادّ أن بقاءهم مرتبطٌ بذلك فقط، بما يلفظه البحر من خيرات، وما تقدّمه اليابسة من فتات، ثمّ جاء زمن التنقيب عن النفط، ولا أظنّ أن الأمر اختلف كثيراً في مفهومهم البسيط الذي كانوا يتعاملون معه بشكلٍ لا واع، هم ما يمتلكونه، حيازة النفط ستجلب لهم الرخاء الذي بدأت مظاهره تُرى في "الكويت" مثلاً، البعض منهم كان يختصر الطريق، ويسافر إلى هناك للعمل، لكي يمتلك، رابطاً بقاءه بما قد يمتلكه، وبما قد يتركه لأسرته، لتمتلكه بما قد يقدّمه لمَنْ يحبّ .. على بساطة سريرتهم تلك، لربّما أن "مسلّم" أمام هذا العالم الجديد قد اكتشف شيئاً آخر، معنى أن يكون موجوداً بذاته للمعرفة، دون أن يهدف إلى أن يحصل على شيء معيّن، كان جوهره قد بدأ يتشكّل.

- ما الذي يجعلكَ تعتقد أن "مسلّم" الأب بمثل هذا المستوى من الإدراك في وقته ذاك، لربّما كان صغيراً جدّاً على فكرة كهذه؟

- أنا لا أعلم، أنا أفترض، وأحاول أن أربط بين ذلك وبين رغبته المستميتة بالعودة .. لربّما هو يريد أن يعيد تكثيف ذلك الشعور.

- هل تتوقّعه كان يأتي إلى هنا بانتظام؟

- لا نستطيع أن نجزم، ربّما كان يسكن قريباً من هنا، ويستطيع تأمّل هذه التفاصيل، لربّما كان الأمر زيارة خاطفة واحدة، ولّدتْ لديه شعوراً عارماً بعدم الارتواء.

- والعين المصابة؟

تأمّلني الآن بحَيْرة، لكأنه تذكّرها فجأة .. هي اللحظة ذاتها التي تذكّرتُ بالضبط العطر الذي كنتُ قد اخترتُهُ لليوم، هل أدرك نوعه؟ هل ستُذكّره هذه الرائحة التي أضعها بي دائماً؟.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- دعينا نُكمل التطواف.

قالها وهو يرغب باستئناف الطريق نحو حلّ اللغز، انتهى بنا الممرّ الناصع إلى قاعة ملوّنة، حوت مجسّمات ضخمة لحشرات وطيور، وصوراً لمناطيد ولمجسّم إنساني في محاولة من محاولات الطيران، لقد كان القاعة تمرّ بتاريخ حلم الكائن البشري بالطيران، بألواح تحوي شروحات حول شخصيات مهمّة، أثّرت في تحويل ذلك الحلم إلى واقع. توقّف "مسلّم" أمام الشخصية الأولى التي تؤرّخ لمسيرة الإنسان والطيران .. أشار لي بأن أتقدّم لأقرأ معه:

"إننا لا نعرف متى حاول الناس لأوّل مرّة أن يحوّلوا أحلامهم إلى واقع ملموس، ويحلّقوا به إلى السموات، فقد بدأت محاولاتنا الأولى للطيران بتقليد الطيور، وغالباً ما انتهت بنتائج وكوارث مروّعة، وكانت أوّل مخطوطة تسجّل مصرع إنسان في أثناء الطيران، تختصّ بالملك "بلادود" ملك بريطانيا".

- حسناً "مسلّم" تبدو معلومة عابرة، لن تفيدنا.

- ألم تلاحظي أمراً.

- ما هو؟

- المحطّة كانت بإيعاز بريطاني .. المحاولة الأولى للطيران إنجليزية.

- مثير .. لكنه ليس مهمّاً.

- ربّما.

فتحت تلك "الربّما" بوّابة الاحتمالات، ولم تُغلقها، كانت الأسئلة تتّسع كلّما توغّلْنا، والخدش الذي كان المغزى من تلك الزيارة، راح ينمو بيننا، كحاجز .. يجعله لا يراني كأنها المرّة الأولى، ولا أكاد أنا أدرك أنني أقابل "مسلّم" الآخر خارج المساحات الهشّة، بعنصرَي زمانٍ ومكانٍ كاملَيْن .. لقد انتزع "الخدش" دهشة اللحظة، وابتلعَنا في دوّامته، كان أوّل ما فكّرتُ به وأنا أودّع "مسلّم" بمصافحة حقيقية هذه المرّة هو أنني أشعر بعطش شديد، وبحَيْرة أن ما بيننا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآن لم يُؤثّث الثقة، بل بدّدها، لم أكن بعد أعرف هذا الرجل الذي وقف أمامي، لم تتفتّت هالته الضبابية، بل ازدادت كثافة.

10) صحيفة الاتّحاد الإماراتية عدد ٢٢ يونيو (حزيران) ٢٠١٢.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب التلاشي

## (صفحةٌ مقتضبةٌ من ذاكرة "مسلّم")

الشارقة ٥ فبراير (شباط) ١٩٧٢

- سامحيني، يا (عليا).

- علامَ؟

- أنتِ طالق!

شهقت .. أربكتْها حُرّيّتها التي أتت فجأة ومتأخّرة، كانا متقابلَيْن في جلوسهما في تلك الغرفة التي شهدت تأرجحها وحَيْرته .. أرادت أن تبكي، لكنها تجمّدت، شعرت بأن الخسارات تأتي أحياناً، لتشمل أشياء لم يرغب بها الإنسان حقّاً .. أشياء كانت أقرب إليه بالبغض من التماهي والقبول، شعرت بثقلٍ غامرٍ على قلبها، باغتَها طَعْم الملح في فمها، هل هي الدمعة تتجسّدُ بشكل آخر؟ .. دمعتها التي حبستْها يوم جاؤوها بالخبر قبل عودة "مسلّم" بيوم .. قُتل "سند". تعرّف على جثّته أحدهم، كان مع الطرف الآخر، لا شكّ أنه مات في خضمّ ما حدث، أُخِذَ خبره بهدوء .. عاد والده من الهند مرتاعاً، لم يقمْ له عزاء، واسى الناس والده على استحياء، ثمّ تماثلوا لحياتهم العادية، تحاشوا ذِكْره بعد ذلك، فيما بقيت هي تحاول أن تفهم، عاد "سند" ليغيب .. عاد ليعلّق قلبها إلى الأبد .. بلا أملٍ ولا انتظار .. انهارت لتذوي، ظنّوه أثراً لغياب زوجها، تحلّقوا للمواساة والتطبيب، "مريم" بسذاجتها الطفولية ونسوة الحَيّ بشفقتهم البائسة .. ثمّ كان أن عاد "مسلّم" .. وجده "سعيد" بعد أن واصل البحث، مصاباً هو الآخر، جالت الآن بينهما تلك الفكرة التي تعاظمت بداخلها "ليتَك مُتّ مكانه" دون أن تدرك أن ذلك كان ممكناً، وأن الفارق بين ما أرادت، وما كان، مجرّد طعنةٍ وخدش.

كسر نظرته أمام استفهامها والجمود الشارد الذي تلاه وهي تركّز العينَيْن على وجهه الذي لا تزال تغطّي الضمادة مكان عينه



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اليسرى فيه، ضمادة أخرى غير ضمادات "عائشة"، هو الخارج فيه يومه هذا من المشفى، بعد أن تفاقمت عليه الحمّى، عثروا عليه هناك بعد أن استمرّ سؤال "سعيد" و"سهيل" الكثيف عن مكانه، حاول أن يسيطر على دمعة نافرة، هو الآخر وهو يتذكّر، سمع بخبر "سند" قبل يومَيْن أدرك أن تلك الطعنة قد قتلته، وأنه هو الذي أسبل عليه ذلك الموت الكامل .. أدرك ذلك جيّداً، لكنه لم يبخ به، بقي مشدوهاً أمام "سعيد" وهو يخبره عن "سند" ولد التاجر الذي عثر عليه فجأة هناك قرب موضع الحدث، وكيف أن الصدمة أخذتْهم إلى حين دفنه المتواضع الذي شارك فيه قلّة من أهل الحَيّ في مجاملة خجولة لوالده الذي قطع ما كان يفعله في تلك الأراضي البعيدة ليعود، قام من موضعه محاولاً الوصول إلى مكان حاجيّاته، تعثّر، لا يزال غير قادرٍ على استيعاب ما فَقَدَهُ، دم وعين، استكان قبل أن يعاود تحرّكه باتّجاه حاجيّاته، قامت "علياء" تجاهه، شعر باقترابها، شعر بالندم بداخله مضاعفاً، ماذا يقول لها؟ كيف يبرّر لها جبنه أمام تحمّل جريرة دم "سند"؟ كيف سيكشف لها عن معرفته بالسّرّ، عن شعوره بالغضب والمهانة والغباء والأسف والحسرة؟ كيف يعتذر .. أراد أن يعتذر، لكنّ ثمن اعتذاره سيكون ذلك الاعتراف الذي قد يسلبه حُرّيّته.. تطوف بباله الآن صورة "مرشد الحرامي" والخوف على ملامحه، قد لا تسلب حُرّيّته فقط، قد تُسلب حياته .. روحٌ مقابلُ روح، لم يكن مستعدّاً بعد، كيف له أن يواجه أمّه وأباه؟ وجدته في الجانب الآخر، بماذا قد يبرّر لهم خطيئته؟ هل كان لهم أن يروا ما حدث من مكانهم ذاك؟واصلت "علياء" اقترابها، جاورتْه، فقطعت الفكرة، انحنت لتلقط معه الحاجيّات البسيطة من الصندوق .. تناولتِ الحقيبة التي دخل بها، راحتْ تصفّها في تأنٍّ أمام حَيْرته .. سالتْ من العين الأخرى دمعة، خاف أن تكون دمعته الأخيرة، لكنها لم تكن .. رفعت رأسها تجاهه بامتنان، زاد حَيْرته .. قبل أن تستفهم:

- ما الذي حدث لعينِكَ؟

- كنتُ هناك يوم حدث الأمر.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعرتْ بالغصّة، "سند" كان هناك يوم حدث الأمر أيضاً، لم تدرك تشاركهما الأمر ذاته، الموازي للأمر الذي تعتقده، ارتجفتْ يدها، توقّفتْ، اقترب، وعاونها، حمل الحقيبة المهترئة، حقيبة "عائشة" التي جاءت بها من البلاد البعيدة .. كرّر:

- سامحيني، يا "علياء".

حارتْ من الأسف الذي أخذ يعيده، لكنه فتح الباب، ليواجه "سعيد" و"سهيل" .. أغلقتِ الباب خلفه، تركتْه يشرح لهما خياره، سمعتْ استنكاراً وجلبة، أسئلة، الكثير من الأسئلة .. قبل أن يخفتَ كل شيء.

زفر "مسلّم" وهو يغادر ذلك المنزل، مزيج من الشعور بالذنب والخلاص يرافقه، عبر الطُّرُقات بصمت، شعر بالعيون تحدِّق به مستفسرة بدورها عمّا أصاب عينه، ألقى التّحيّة على مَنْ عرف، وتحاشى مَنْ لم يعرف، كانت الحركة خفيفةً جدّاً على غير عادة الحَيّ الحيوي دائماً، كانت الشمس في تمام سطوعها رغم البرد بعد مطرٍ، استمرّ ليلة كاملةً بالأمس، إلى أين يوجّه سيرهُ الآن .. تذكّر تَيْنكَ العينَيْن الواسعَتَيْن، اطمئنانها اليومي عليه خلال الأيّام السابقة في المستشفى، انكسارها يوم أتت لتجده في حضرة "سعيد" و"سهيل"، دمعتها الشفيفة وهي ترقب مغادرته معهما بالأمس، بعد أن أتتْ له بحقيبة "عائشة"، وبها بدلته الترابية الممزّقة، وجد الطريق كلّما ابتعد عن حَيِّهم القديم تتّسع، وجد أن روحه تكاد ترفّ بعد أن أدرك إلى أيّ وجهة تقوده قَدَمَاه الآن .. تذكّر الغمّازة، توقّف أمام الباب، طَرَقَهُ، انزاح الباب عن "جواهر" التي فتحتْه .. اتّسعتْ عيناها بالحبور، وشعر هو بأنه وللمرّة الأولى، لم يعد يخشى الغرق.

استقبلتْه "عائشة " في فرح، غلبت عليه التساؤل، فهو الآن رجلٌ غريب بكامل صحّته .. يزورهما .. هي أرملة البلاد البعيدة وابنتها .. في حَيّ لن يرحمهم .. عاجلها.

- لقد جئتُ خاطباً.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يفهم "مسلّم" نفسه الآن، كيف نسي الدم بمثل هذه البساطة؟ طافت في ذهنه ابتسامة "هلال"، إلا أنه سارع بطردها أمام لمعة عينَي "خاطر" الغامضَتيْن اللَّتيْن احتلّتا مساحة التفكير فيه، ليشعر بأنها قادته حتماً إلى هنا للمرّة الثانية.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب التّفتّت

## -١-

نارُ الروح عظيمة

وما من أحد ينال حصّته من دفئها

ولا يرى العابرون سوى خيط الدخان

"فنسنت فان جوخ"

باريس ٢٠٠٨

- كلّ جمال مَبنيّ على نقيضٍ في أصله، على متقابلات .. لا متشابهات .. هذا التناقض قد يكون في ضربات الألوان أو في الموضوع الذي يستعرضه الفنّان / النّحّات، وحتّى الشاعر والسارد في بعض مواضع .. إن لم تجدوا تلك المتقابلات .. فإن العمل يأتي مسطّحاً خالياً من الأسئلة.

استمعتْ "ميرة" إلى نبرة صوت "جيلبرت" الرصينة التي تناقضت مع مظهره الصبياني، كان جميلاً في تناقضه ذاك بشَعْره البنّيّ الفاتح المتناثر بفوضوية، وحلّته التي ارتداها على قامة متوسّطة بربطة عنق، يتركها دائماً مَرخية بلا مبالاة، كطفل هاربٍ من البروتوكولات العامّة إلى شَغَبه الخاصّ، راح يقدّم لها ولمجموعة من الطلاب شروحات متفرّقة لأهمّ مواضع الجمال في بعض ما استعرضه متحف اللوفر الفرنسي .. طلابٌ وطالباتٌ في سنتهم الأخيرة .. يستعدّون للتّخرّج في كُلّيّة الفنون الجميلة، ويقومون برحلة تدريبية خارجية، يشرف عليهم هنا الشّابّ الذي تبقى "ميرة" في تأمّل دائم لتناقضاته بين لون عينَيْه الواسع وضيق شكلهما وفوضوية شَعْره والنّظّارة الطّبّيّة الأنيقة وبين حلّته المرتّبة وتصرّفاته الطفولية المباغته أمام كل عملٍ يظنّ بأنه عملٌ فنّيّ خرافيّ، على حدّ تعبيره، لشدّة ما احتوى من جمال.

- هل أنتِ معنا أيّتها الشّابّة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لكنكَ شابّ أيضاً.

- هذا ليس موضوعنا .. أنتِ شاردة في معظم الرحلة.

- كنتَ تتحدّث عن التناقضات .. "كل جمالٍ مَبنيّ على نقيض في أصله".

تُوتِّرُه هذه الشّابّة، يفكّر "جيلبرت"، كيف لها أن تجمع بين الشرود الذي تفضحه عيناها اللتان تحدّقان دائماً في الفراغ وبين قدرتها على الإجابة على الأسئلة المباغتة كافّة التي يطرحها؟ تبدو في جمودها ذاك كالسّيّدة الشرقية في لوحة "Present Day Sphinx" "لليوبولد كارل مولر"، بذلك التّرفّع الخافت المبهَم وهذه السمرة الباهتة التي تجعلها تبدو لكأنها قد غادرت تلك اللوحة في وقت ما، لتجلس أمامه، يتذكّر أنه لطالما أراد أن تواجهه السّيّدة في تلك اللوحة بدلاً من نظرتها الجانبية التي اختارها "مولر"، لعلّها هنا، تماماً كما أراد، يتوجّه الآن مع المجموعة المكوّنة من ثلاثة عشر طالباً وطالبة نحو ركن من الأركان، محاولاً أن يعيد ترتيب أفكاره، في خضمّ هذا الازدحام السياحي من الأفواج التي تزور اللوفر متماسّةً معه بشكل سطحي فَجّ، أنزل حقيبة ظَهْره مفتّشاً عن لوحته الأخرى الأثيرة، أخرجها، واجههم بذلك الملصق من الورق المقوّى الذي يعرض نسخة من البورتريه الشخصي لـ "فينسنت فان جوخ"، كان الفنّان قد رسمه في العام ١٨٨٧، وهو يحدِّق في شيء من الصرامة والحَيْرة مهندماً في حلّة رمادية داكنة، يبتسم الآن وهي يرى "ميرة" للمرّة الأولى في يومهم هذا .. تحدِّق في شيء ما بتركيز شديد، استعاد حماسته، وأخذ يشرح.

- وقد يحدث، يا أصدقاء، أن يكون العمل الفنّيّ مكاناً، بحدّ ذاته .. رغم أن ما يعرضه هو ليس شكلاً لمكانٍ محدّد.

## -٢-

أبوظبي ٢٠٠٨



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاد في ظهيرته تلك منهكاً، ترك العالم خلفه، ونام، لكن العالم كان عازماً على أن يستردّه، يشعر الآن بيدٍ تهزّه، تسحبه من مكانه الذي قابل فيه "فهد العسكر" أخيراً، لكنهما الآن يبدوان وقد تبادلا الأدوار، كان هو الأعمى فيما راح "العسكر" يخبره عن المكان حولهما بلذّة المُبصِر، كان شرحه مجرّداً خالياً من الشاعرية التي لطالما تمنّاها في لقائهما الأوّل .. أراد أن يطلب منه التّوقّف عن الكلام ..

- "مسلّم" .. استيقظْ.

استردّ وعيه كاملاً، لم يعد أعمى، تأمّل وجهها نافد الصبر، وهي تُتمتم متذمّرةً من نومه الثقيل .. انتبه إلى أنها ترتدي عباءتها في استعداد للخروج، فيما تركت غطاء الرأس على كتفها كاشفاً عن شَعْر قصير داكن.

- ما الأمر؟

- سنذهب أنا والصغار إلى تجمّع العائلة.

- حسناً.

- حسناً؟

- ماذا؟

- ألن تأتيَ معنا.

- سأرى .. لدي بعض الكُتُب التي أودّ الانتهاء منها.

- كُتُب .. كُتُب .. هذا وأنتَ لستَ كاتباً أو شاعراً، أنتَ مجرّد..... ..

- توقّفي.

- غداً هناك تجمّعٌ آخر.

- سأكون في العمل.

- لكنه الجمعة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- مهمّة خاصّة.

- إذنْ، عليكَ أن تحضر اليوم .. والدتي تسأل عنكَ.

- حسناً .. حسناً .. اسبقوني أنتم، وسأتبعكم لاحقاً.

طافت بينهما لحظة من تلك اللحظات التي تتكرّر كثيراً، الارتياب الذي يقابله الجمود، تأفّفت وهي تحمل حقيبتها، وتعدّل من غطاء رأسها، وتخرج، بقي جامداً، يحاول تحليل صورة "العسكر" التي طافت به قبل قليل في المنام .. قطع جموده، وتناول هاتفه المتحرّك المغلَق منذ يومَيْن تقريباً، ليعيد تشغيله، تنوّعت التنبهيات التي وصلتْه بين الرسائل النّصّيّة ورسائل البريد الإلكتروني، تنبّه إلى اسم "ميرة" بين إحدى رسائل البريد الإلكتروني، اختار أن يبدأ بها:

"كان الحديث طويلاً عن إمكانية أن يصنع الفنّ المكان اللاموجود واللامنطقي، محوِّلاً إيّاه إلى قطعة مكانية مكثّفة، لا تشبه أيّاً من الأماكن الكونية المألوفة .. وكان من الغريب أن اكتشف لاحقاً أن الغياب بشكله الكثيف كفعل إنساني .. قد يكون مكاناً أيضاً.

وكنتَ أنتَ الكثيفُ بغيابكَ .. تعيد قولبة الفقد .. ليكون تلك القطعة الفنّيّة المتخيّلة التي راحت تشغل ذلك الفراغ .. فراغ القلب .. المخيّلة .. العتمة.

إذنْ، فالقطعة الفنّيّة هنا .. البديعة بأسى .. هي غيابكَ الممتزج بالمكان والذاكرة، مشكّلاً من خلالهما بُعْداً آخراً، أخّاذاً ومُوجِعاً في الوقت ذاته، كبورتريه "فان جوخ" الشهير من العام ١٨٨٧، الذي كان هو حاضراً فيه بكثافة هيئته البشرية، فيما كان المقصود بدقّة هو استحضار وجه الألم الخالص، العذاب، الحَيْرة، السخط، لقد شكّل البورتريه امتزاجاً لتلك المشاعر الغائبة عن الحضور الظاهري في اللوحة، رغم أنها كانت في العمق بطلة العمل، ناقلةً إيّاه من بُعْده المنطقي، إلى حالةٍ أخرى، حالة مكانية، شكّلت موطناً لذلك الكَمّ الكبير من الخذلان الذي أشعره به هذا العالم، ولذلك ترانا تندّ عنّا كمتلقّين تلك الشهقة الشعورية الخافتة، كلّما



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تأمّلنا ذلك الوجه، ونحن لا نفهم سرّ ذلك الافتتان المباغت.

حسناً، لعلّي أحاول أن أقول هنا، إن غيابكَ فاتنٌ وفنّيّ بطريقة غريبة، ففي حضوركَ الخاطف يكون الغياب بطلاً ملازماً .. مؤجّلاً إلى حين .. لكنهُ منتصرٌ في النهاية، إنه الجمال المَبنيّ على الشيء ونقيضه، الجمال القائم على الشّكّ والسؤال، الجمال الراسخ ربّما.

مرّة أخرى .. لعلّي أردتُ أن أقول .. بأنكَ تغيب، لتُزهر في القلب".

أعاد القراءة مرّة أخرى قبل أن يفتح نافذة التّصفّح الشبكي في هاتفه باحثاً عن ذلك البورتريه .. تأمّله لعدّة دقائق .. قبل أن يهاتفها.

## -٣-

دبي ٢٠٠٨

كل مطار يعيد تذكيري بالمحطّة وخدش "مسلّم" الأب والهذيان، أسبوعان مرّا دون زيارة له، وكان الأوّل على قائمة ما سأفعله في صباحي الباكر، تأمّلتُ الأفواج التي عبرت أمامي في انطلاقها للبحث عن الحزام الذي سيحمل إليهم الحقائب الآيبة معهم. بحثتُ معهم بدوري حتّى وصلتُ إلى الموضع الذي ستصل فيه حقيبتي، تشغالتُ بأحاديث خفيفة مع الزميلات العائدات معي، كنّ يتحدّثنَ عن "جيلبرت" بانبهار جعلني أشعر بحنقٍ غير مبرّر ..

- لماذا الانبهار كله بهذا الشخص؟ ما يملكه من معلومات يمكن لأيّ أحد أن يتحصّل عليه بقراءة كتاب من هنا، وكتاب من هناك .. إلى جانب أننا يجب ألا نُغفل تخصّصه الجامعي، لقد درس هذه الأشياء كلها.

أربكهنّ هذا الرأي إلا أنهنّ اخترنَ أن يلذنَ بالصمت وبالابتسامات غير المبرّرة التي واجهت بدورها ذلك الحنق الغريب، وصلت الحقائب، لتبترَ ذلك الجوّ المتوتّر، انتشلتُ حقيبتي، حَيَّيتُ مَنْ تبقّى من الزملاء والزميلات، ومضيتُ نحو الخارج، عبرتُ ممرّ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العيون المترقّبة للأحباء العائدين بسرعة، كنتُ أحاول أن أتحاشى نظرات الخيبة، كوني قد أشبه أحد العائدين الذين ينتظرونهم، ثمّ يظهر بأنني لستُ هو أو هي بالأحرى. بحثتُ عن سيّارة أجرة فارغة، أنا التي اخترتُ أن تكون عودتي اليوم إلى المنزل مباغتة، تظنّ أمّي أن عودتي ستكون في الغد، فيما قد لا يختلف الأمر كثيراً بالنسبة إلى والدي الغائب بدوره في إحدى رحلات العمل المستمرّة. تناولتُ مفكّرتي الصغيرة من حقيبة اليد بعد أن أرشدتُ سائق مركبة الأجرة إلى المكان المنشود، ثمّ رحتُ أتأمّل ما رسمتُهُ وأنا في تلك الرحلة، وما دوّنتُهُ عرضياً، الكثير من الخربشات التي تحاول أن تحاكي تلك الغرابة الصبيانية التي شكّلت وجه "جيلبرت" .. قطع تأمّلي هاتف "مسلّم".

- الحمد لله على السلامة، يا قطّة.

- "اللّٰه يسلمك".

- ما هذه النبرة الباردة؟

- عادية .. لا برود فيها.

- حسناً .. لقد قرأتُ ما أرسلتَهُ قبل يومَيْن فقط، هاتفتُكَ في حينها، ولكنْ، لم يصلني ردّ منكَ.

- .....

- لماذا الصمت؟

- لا شيء .. كنتُ أحاول أن أتأمّل في ما دوّنتُهُ ورسمتُهُ خلال الرحلة .. و..

- و قطعتُ حبل أفكارِكِ.

- تقريباً.

- متى تزورين "مسلّم"؟

- غداً صباحاً.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سأكون هناك.

- كما تريد.

- قطّة!

- ماذا؟

- ما الأمر؟

- لا شيء محدّداً.

- حلمتُ بـ "فهد العسكر" مرّة أخرى.

- حقّاً ..

- لكن الأمر كان مختلفاً هذه المرّة .. لقد كان يرى، وكأن في رؤيته الواضحة تلك للعالم، ذاب الشِّعْر .. وانتهى الشاعر، تخيّلي كنتُ أوشك بأن آمره بأن يصمت، وأنا لا أطيق الفجاجة الباردة التي راح يصف ما يراه .. تماماً كما يراه.

- ربّما كان يريد أن يقول لكَ إنه كان متجلّياً بعماه.

- ربّما..ولكن الأمر المخيف .. أنني كنتُ الأعمى في الحلم.

- هل كنتَ خائفاً حقّاً؟

- لا أعلم .. كنتُ مشغولاً بـ "العسكر" أكثر من انشغالي بحالتي.

- أعتقد بأنني أيضاً حلمتُ بـ "العسكر" منذ زمن .. لا أذكر الحلم بتفاصيله .. عموماً "مسلّم" أنا أقترب من المنزل الآن .. نتحدّث لاحقاً.

شعرتُ بأنه يتوجّب عليّ أن أُنهي المكالمة، رغم أنني لم أكن أقترب من المنزل بشكل قاطع، شيء ما كان يبهت، في كل مرّة كان "مسلّم" يغيب ليعود .. أو يعود ليغيب، كان في ذلك التكرار، وعلى عكس ما يُظهِره الجانب الجمالي للأشياء، التي تصنع من المتواليات المتكرّرة في المباني وبعض النقوش صورة جمالية،



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان التكرار في حالة "مسلّم" معي، مدمّراً لفكرة أيّ نسقٍ جمالي قابل للتّشكّل.. .. لم يكن الأمر متعلّقاً فقط بنظام عمله، ولا بأسرته التي نبتت بيننا فجأة يوم أخبرني عن الزوجة والأطفال قبل سَنَتَيْن .. الفكرة كانت في التكرار ذاته، فيما يتلفه بالتدريج بيننا، أو فيما نعتقد أنه بيننا أنا وهو في إتقاننا للموارب من الكلمات والأفعال هرباً من التصريح بالشعور المباشر .. بدأ الأمر معه، وتعلّمته، كان النّصّ الذي كتبتُه له مؤخّراً تجلٍّ أكيد لهذه الحالة، حالة الهرب والدوران المفرغ المتعب، تنهّدتُ، كنتُ أريد أن أعود لمحترفي الصغير في المنزل .. أن أواصل العمل على تلك اللوحة التي تركتُها قبل السفر، كانت المشتهى الوحيد الآن، اللوحة الأخيرة التي ستُكمل السلسلة التي سأُدشّن بها مشروع تخرّجي، رجال ونساء وأطفال يتموضعون بسوريالية، بعين واحدة .. ونصف عمى .. مشعلين السؤال الكامل لمَنْ أمامهم، حول مصير تلك العين الأخرى، أتذكّر الآن بابتسامة أنني قبل سنة، وجدتني أقضي أسبوعاً كاملاً وأنا أضع ضمادةً حول عيني اليسرى، لأحاكي حالة نصف العمى، كنتُ أذهب إلى الكُلّيّة بها، وأعود بها، أستيقظ وأنام وأخرج للتّسوّق وأنا أتابع الحَيْرة على وجوه الآخرين، والشفقة المبطّنة لدى الغرباء والأسئلة على ملامح الصغار، كما هو الحال مع التّهكّم الذي واجهني به الزملاء من هذه الفكرة الغريبة لاستحضار الحالة التّامّة للمشروع، أكاد أضحك وأنا أستكمل ما كنتُ أقوله لهم حول "سلفادور دالي" الذي شعر فور استيقاظه ذات يوم بفكره غائمة، يريد أن يستعرض من خلالها رسما معبّراً عن حالة شعورٍ باللزوجة، وإذا به يجلس يوماً كاملاً عارياً في محترفه مغطّى بالعسل اللزج مختبراً لتجمّع عدد كبير من الذباب حوله، قبل أن تبرق الفكرة الواضحة أخيراً، ليرسم ما أراد .. كانت المقاربة مبهمة بالنسبة إليهم، ممّا جعلهم يواصلون التّهكّم حتّى انقضى ذلك الأسبوع ..

أصل إلى المنزل أخيراً، تتجمّد الذاكرة، يواجهني الواقع.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب التّهشّم

الشارقة ١٩٨٢

يتقابلان الآن .. ويشعر بأن الفارق بينهما في الروح أضحى ضئيلاً، يشعر أيضاً بأنه يشبهه، ويودّ لو أنه يستطيع أن يمدّ له يده بالمغفرة، لكن تلك الحواجز نفسها بقيت بينهما، ملامح والده "إبراهيم" الضبابية، ضحكة أمّه "خديّة"، غمّازة "نجلاء" وأصوات الصغار .. يتحشرج صوت "هلال" في طلبه لرشفة ماء .. ويقابله هو بالجمود .. يكرّر "هلال" طلبه .. ثمّ يصمت في إنهاك .. يصمتان معاً .. يعود "هلال" ليهذي بعيداً عن الماء .. يسأل عن "بادما" أو "بدور" .. و"أحمد" .. يحاول أن ينتصب بجسده، لكي يواصل بحثه البائس عنهما، لكنه يتهاوى .. يراقب التهاوي في وجوم .. يعود "هلال" مرّة أخرى إلى استجداء الماء .. يرفع هو الكوب المعدني المليء بالماء ببطء، يحاول أن يقرّبه من الشَّفَتَيْن اليابسَتَيْن دون يلمسهما .. يرتفع "هلال" من تهاويه في محاولة بائسة، ليرشف ما اقترب، يرتجف مستجدياً بنظرته، لكنه يتجاهل النظرة، يُبعد الماء بغتة، يعيده إلى جانبه، يحاول "هلال" أن يرفع يده، لكنها تخذله كبقية جسده، شعر بأنه يستطيع الآن أن يعاقبه كما اشتهى طويلاً، ماذا لو أنه يتركه يجفّ؟! معاكساً الطريقة التي قَتَلَ "هلال" بها والده .. الجفاف عكس الغرق، ستكون نهاية عادلة .. دخلت "جواهر" للغرفة مقاطعة .. انتبهت للحشرجة ومعناها ..

- ألا تسمع بأنه يريد ماءً، يا "مسلّم"؟

- لقد كنتُ شارداً.

قابلتْ إجابته بنظرة شكّ وهي تقرّب الماء من شَفَتَي "هلال" الذي ارتشف الماء في وهن .. تعيد تسجية جسده الهزيل الذي لم يعد فيه ما يشي بالحياة، جلدٌ رقيقٌ داكنٌ وخشن، ملتصقٌ بعظامٍ هشّة، هذا ما جاؤوا لهم به، بعد أن وصلهم نبأ أن "هلال" .. هناك في تلك الأراضي البعيدة، يطوف في شوارع "بومباي"



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كالمجنون .. بحثاً عن "بادما" و"إبراهيم الصغير" .. "بادما" الصبية الصغيرة الفاتنة، التي سلبت قلبه فوراً .. بعد واقعة الحريق وسفره إلى الهند مع "بو سند"، هناك، كانت تمرّ يومياً مع الفتيات أمام البيت الصغير الذي قطنه "هلال" كمسكن ومكتبٍ معاً، يقوم فيه بشؤون "بو سند" في ترتيب ما يلزم لنقل بضائع بلاد التوابلِ إلى الخليج، عرفها كصبيّة بعينَيْن عسليَّتَيْن، وروح حلوة .. تكشفها ضحكتها التي تصدح بين الرفيقات، راقبها "هلال" منذ صدفته الأولى بها، تعلّم اللغة الأوردية في تمجيدٍ لنبرتها التي جعلت من تلك اللغة كقطعة من السّكّر بين شَفَتَيْن رفيعَتَيْن تخفي صفّاً من الأسنان الصغيرة التي تشعّ كل ما ضحكت، لتمنح تلك السحنة الحنطية بريقاً إضافياً .. كان يشعر بأنه يوازيها في العمر، كلّما مرّت به .. بأنهُ يتحرّر من ثقل أعوامه التي قاربت الأربعين، فتاةُ السادسة عشرة، تعيدهُ معها مراهقاً .. تُشعل فيه ما أشعلتْه غمّازة "نجلاء" قبل سنوات .. يتعمّد أن يخرج، ليتقاطع مع مرورها .. وأن يقف ليتبادل الأحاديث مع كل مَنْ قد يتقاطعون مع الطريق، لكي لا يتكشّف لها أمر مراقبته والتّتبّع، حتّى كان أن جاء حديثه الأوّل معها، جذبتْها عيناه الغائرتان ورائحة التبغ وذلك الهزال الداكن، شيءٌ ما فيه، أشعل فيها الشفقة العطوفة الممتزجة بشعور غريب آخر .. ظنّتْه حبّاً .. لأن الفتيات بقينَ يتهامسنَ بأن اهتمامها الغريب به والفضول هو شيءٌ من الحبّ، فكان أن جرت الأمور سريعاً .. لقاءٌ مع والدها الذي اشترط مهراً كبيراً، سدده "هلال" في حبور من ما كان يتقاضاه من إكراميّات "بو سند" الكثيرة، التي كثّفها له بعد أن بقي قائماً بالأعمال معه وحيداً نتيجة لسفر بكْره "سند" إلى القاهرة، فيما اشترطت هي أن لا تذهب معه إلى تلك البلاد الساحلية البعيدة، تريدُ أن تبقى هنا بالقرب من والدها الوحيد والأشقّاء الصغار بعد وفاة والدتها قبل سنوات طويلة، شعر "هلال" بأن شرطها هذا .. يحرّره نهائياً من ذلك الرابط الهزيل بالوطن المفترض، لماذا يعود؟! .. ألذكرى الحريق؟ لقيدِ الفقرِ الأزلي؟ .. لمَنْ بقي ليُذكّره بهزاله القديم؟ بحبال "جابر"؟ بصفعة "إبراهيم"؟ وبجسده المتفجّر؟ شعر بأن "بادما" تعيد تأثيث عالمه



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من جديد .. بضحكتها الفاقعة وهذا الجسد الطّريّ اليافع، وعلى سبيل تأكيد فكرة التأثيث هذه، كان أن أسمى صغيرهما الأوّل الذي جاء بـ "إبراهيم" .. لقد أعاد "إبراهيم" للحياة من جديد في تصوّره، أراده أن يكبر هنا، بعيداً عن الموت، مَحميّاً بالوفرة والألوان .. على اليابسة، بعيداً عن الأعماق الغادرة .. بجسد صحيح وحَيّ، جسد لن تنفجر رئتاه كبالون، لن يسمح بذلك، كان يتذكّر "مسلّم" بين حينٍ وآخر، وينساه في غالب الأحيان، تخلّى عن غيظه القديم، خصوصاً بعد أن جاء "إبراهيم الصغير"، أمّا بالنسبة إلى "بادما"، فقد كان الأمر مختلفاً .. لأن الفضول الوهّاج بهذا الكهل الداكن، راح يفترُ يوماً بعد آخر، ذوى نزقها الطفولي، وأصبح استفهاماً عمّا فعلتْه بنفسها، ما الذي تفعله هنا، في هذا المنزل مع هذا الغريب الذي يتمتم بكلمات لا تفهمها في غالب وقته؟ راحت تنفر من هزاله، ومن صوته ورائحة التبغ، ولمّا جاء "إبراهيمُ" الصغير، أدركت الاختلاف الفادح بين الفضول والحبّ الصادق .. بين الشغف والشفقة .. وقرّرتْ بعد شهرها الأوّل من ولادة هذه الصغير، بأنها ستنتظرأن يُتمّ عامَهُ الرابع قبل أن يختفيا معاً .. وكان أن حدث ذلك في يومٍ كان فيه "هلال" عائداً إلى البيت الصغير الذي اكتراه بعيداً بعض الشي عن المكان الذي كان يعمل فيه، ويعيش سابقاً، فإذا به يدرك الفاجعة، ذلك الاختفاء المباغت لـ "بدور" كما أسماها بعد الزواج، وللصغير، اجتاحتْه العتمة، خرج من فوره إلى الأب الذي أفجعه ما أفجع "هلال" .. فَمَنْ لـ"بادما" غيرهم؟ أهمل "هلال" عمله مع "بوسند" الذي كان هو الآخر موشكاً على أن يصفّي أعماله، ويعود بشكل نهائي إلى الشارقة بعد فاجعة ابنه، راح يجوب الطُّرُقات بحثاً عن "بدور" و"إبراهيم"، سافر بين المُدُن، انغمس في التّنوّع المريع على تلك الأرض، فتّش في طبقاتهم، وتعلّم من اللغات ما قد يُعينه على البحث في بلد غزارة الألسنة هذا، تمرّ السنوات كالقطارات السريعة، تحمل ما تحمل من الملامح والألوان دون أن يجدها .. سقط مريضاً في بيته المعتم، بين الحمّى والهذيان، حاول مرّة أن يتجاوز هذا السقوط بأن خرج في نوبة بحث مهتاج أخيرة .. فكان أن وجده وجهٌ مألوفٌ من الوجوه القديمة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي استنكر عليه هذه الحال التي وصل لها، عاد به إلى الشارقة، باحثاً عن "مسلّم" الذي يعرف أنه آخر مَنْ تبقّى له من دمه .. "مسلّم" الذي كان بدوره قد أثّث حياةً جديدة معتاداً على ذلك الخدش. انتقل إلى أحد الأحياء الجديدة التي راحت تتناثر بعيداً عن الساحل، أحبّ هذه الفكرة، فكان لهُ بيتٌ مُنح له بعد أن أنهى خدماته الشرطية نتيجة لما أصاب عينه، تجاوز غصّة الدم .. تزوّج "جواهر" فور طلاقه من "علياء" التي بمجرّد زواجه منها شعرت "عائشة " أمها بأنه بات في وسعها أن ترتاح أخيراً على هذه الصغيرة التي وُلدت لأبٍ اعترف بها متأخّراً .. متأخّراً جدّاً على أخوةٍ، لن يتقبّلوا أبداً بينهم "بنت الهندية" التي لم يشفع لها أنها كانت المطبّبة المعتمدة في الحَيّ، لما تعرفه من مهارات أولى كانت قد تعلّمتْها في بلادها .. الأمر الذي ساعدها هنا على كسب الرزق اليسير، ممّا تعوده من بيوتٍ، لتخفّف من آلام مرضاهم .. تركوا لهم ذلك البيت القديم مستأثرين بحصّة الميراث الضخمة، البيت الذي باعته بعد سنوات من زواج ابنتها عن طريق "مسلّم" تاركةً بدورها قبل وفاتها له ولجواهر ما مكّنه من شراء محلٍّ صغير في سوق الجبيل للخضار والفواكه، يبيع له ما تيسّر فيه من الأصناف والأشكال الملوّنة التي راحت تستورد بكثافة في أزمنة الازدهار التي بدأت آثارها تظهر من حولهم .. في شوارع مسفلته، ومبانٍ أخذت تكبر شيئاً فشيئاً .. وأسواق تبيع من الأصناف شتّى، جلبت معها بدورها أصنافاً شتّى من الملامح والألسنة .. كان ما يقلقه حتّى عامه ذاك هو تأخّره و"جواهر" في الإنجاب .. خاف أن يكون ذلك عقاباً له على روح "سند" التي سلبها .. حتّى عاد "هلال" من جديد قبل شهر .. كقيح في الذاكرة .. أخذ ينزّ من جديد.

- ما الذي أصاب عينكَ؟

يسأله "هلال" في لحظة تركيز من لحظاته النادرة بين هذيانه المتواصل .. يشيح بوجهه عنه .. يغمض "هلال" عينَيْه دون أن ينتظر جواباً، تهمس له "جواهر" التي كان قد أخبرها عن حكايته الشائكة مع "هلال".



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- عليكَ أن تنسى، يا "مسلّم" .. أن تنسى وتسامح.

- لا أملك ذلك.

- مَن الذي يملكه، إذنْ.

يقوم ليمضي خارج الغرفة، إلى ذلك الفناء الضّيّق للمنزل، يستمع لصـوت مركبـةٍ عـابرة، يـدرك أنـه جـارهم الـشّابّ وقـد عـاد إلـى المنزل .. يقترب من الباب الخارجي .. يستمع للخطوات الآيبة .. إلى ذلك المنزل المجاور، لا بدّ أن زوجته أو والدته ترافقانه .. يغمض عينَه السليمة .. يشعر باختناق مباغت .. أراد أن يتنفّس .. لكن شيئاً ما في الأجواء كان يبدو لكأن الهواء قد جفّ .. تناديه "جواهر" في صوتٍ مرتبك .. يهرع من فوره إليها .. يرعبه اتّساع بؤبؤ "هلال" الخالي من الحياة .. ومرّةً أخرى، بدلاً من أن يشعر بالخلاص الأخير .. تكثّف الرعب الأوّليّ إلى غضب.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# باب التلف

## هزيلٌ صراخكَ، والثقبُ في صوتكَ فادح

## -١-

الشارقة ٢٠٠٩

سنةٌ تمرّ، تطوف بـ "ميرة" الفكرة، لم يعد لـ "مسلّم" الآخر وجود، لكأنه عاد إلى العدم الذي جاء منه، تعرف بأنهُ راح يذوي شعورياً، وبأن الفراغ الذي بينهما راح يتعاظم، أدركت ذلك وهي ترسم الخدش الأخير، يوم أتمّت اللوحة المتبقّية في سلسلة لوحات مشروع تخرّجها، تذكر أنها جلست مدّة يوم كامل في محترفها المنزلي الصغير، تطالع العيون وندباتها، تحاول أن تفهم .. كانت تنشد من هؤلاء الرجال والنسوة والأطفال أن يأخذوها إلى تلك الحلقة المفقودة من عمر "مسلّم" الأب، إلى المعنى خلف ذلك الخدش، إلى سببه، يومها هاتفها "مسلّم" الآخر، بعد غياب أسبوع، ليعود مستكملاً حديثاً مبتوراً حول ضرورة البحث عن "مطر"، لكأنه لم يفصل بين مكالمتهما الأخيرة إلا بضعة دقائق، للمرّة الأولى تشعر بأنه جزءٌ نافر، شيءٌ لا يستقيم مع كل ما حولها، هي التي باتت تعرف أنها في كل ما تريده، لم تعد تتلاقى مع "مسلّم" في شيء، تذكر أن الفكرة أرعبتْها في المرّة الأولى، ثمّ راحت تكبر، تلتفّ حول تفاصيلهما كلها معاً .. تجعلها الآن تقول:

- ما الذي يهمّكَ في "مطر"؟

- ماذا تعنين؟

- لماذا تريدُ أن تجده؟

- لأنكِ تريدين ذلك..

- أجل، أنا أريد ذلك، لأن "مطر" هو جزء من تكوين حكايتي الإنسانية، شقيقٌ غيرُ مألوفٍ للروح، جزء آخر هو أيضاً من لغز "مسلّم" وحياته.. هو شيءٌ قد يعيد له السكينة والتوازن، كثيرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هي الأسباب .. ولكنني لا أرى أيّ شأنٍ لكَ بها.

- .....

- سأُطلعكَ على أمر.

- ما هو؟

- انتهت اللعبة.

- أيّة لعبة؟

- أتذكر تلك اللعبة القديمة، لعبة المعلومات؟

- هل ما زلنا نلعبها؟

- "هه".

- ما الذي تعنينه بهذه الـ "هه"؟

- أنتَ تلعبها .. مصعَداً من وتيرتها ومخفّضاً منها في مرّات أخرى، إننا .. أنا و"مسلّم" الأب و"مطر" مجرّد أجزاء من تلك اللعبة التي تُخرجكَ من رتابة عالمكَ الآخر ربّما، أو تتوازى مع شَغَفكَ بالمطالعة على مستوى جديد، أنا .. كـ "مسلّم" الأب وكـ"مطر" مجرّد حكايات تتسلّى بتقليبها بين الفترة والأخرى .. أتذكر ما قلتَهُ لي منذ زمن عن التيه والنغمة .. نحن جميعنا أُغنيّتكَ القصيرة تلك، وأنا لا أريد أن أكون أُغنيّة أو نغمة أو أيّاً من تلك التفاصيل الصغيرة أنا .. نحن .. كائنات حَيّة من لحم ودم ومصائر.

- حسناً .. يُفضَّل أن نتحدّث لاحقاً، يبدو أن وقت مهاتفتي لكِ لم يكن مناسباً.

- لا وقت مناسباً أكثر من الآن .. ولن يكون هناك وقتٌ آخر.

تتنهّد الآن وهي تواصل القيادة في ذلك الشارع الفرعي، كان الضباب يهبط في وقت مبكّر هذا المساء على غير العادة، تُذكّرها العلالات البيضاء الكثيفة بالعمى، شيء يشبه "العمى" الذي أصاب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سكّان المدينة التي قدّمها "جوزيه سارماغوا" في روايته التي حملت الاسم نفسه .. تذكّر أن "مسلّم" أهداها في سنتها الجامعية الأولى الترجمة الإنجليزية لهذه الرواية، كانت شكلاً من أشكال افتتانه بالعمى الكامل على عكسها هي التي لم يشغلها إلا عمى "مسلّم" الأب النصفي، لكنها ومنذ أن قرأتْ هذا العمل، بقيتْ وكلّما هبط الضباب صباحاً .. تحاول أن تتخيّل نفسها أحد المصابين بذلك الوباء الغريب، تتساءل عمّا كان سيكون موقفها، عن أيّ وحشٍ كامن فيها، قد يكشف ذلك العطب المفاجئ؟ تصل إلى المنزل وهي تحمل بعض الحاجيّات التي تعدّها لزيارة "مسلّم" الأب المعتادة غداً، تحيّي أمّها بإيماءة، تشعر بأن الكلام إذا خرج الآن، سيخرج ثقيلاً. كثقل ذلك الضباب الخارجي، تدلف لغرفتها نصف المضاءة، هي التي تنسى غالباً شيئاً ما مضاءً في غرفتها قبل مغادرتها، تضع الحاجيّات في ركن جانبي، وهي تفكّر بمدى انتظار "مسلّم" لها هل افتقدها؟ تعرف هي الإجابة، فكيف له أن يفتقد مَنْ لا يكاد يعرفه؟ .. مَنْ شغل مساحة قصيرة من ذاكرته المشتعلة، تلك التي أخذت تلفظ الهذيان والأسماء العشوائية، دون أن يكون من بينها اسمها، هي التي قابلت الهذيان بالبوح .. كانت تجالسه أسبوعيّاً مُحدِّثةً إيّاه عن شعورها الغريب بالراحة والأسى بعدما طمست كل ما له علاقة بـ "مسلّم" الآخر من عالمها، عن شعورها في أحيان بأنه تجحد دوره في تشكيل وعيها، وعن غضبها المستعر في أحيان أخرى أمام هلامية تواجده في عالمها، لكنها، ورغم كل ما باحت به، خشيت أن تبوح له بلقائهما الأوّل في المحطّة، بقي ذلك الحاجز الغامض بينها، ذلك الذي يجعلها تخشى من أن يستردّ وعيه، ويشعر بها وهي تحاول انتهاك ذاكرته وألمه لإشباع فضولها في سبيل اكتشافِ ما أصاب تلك العين المغمضة، تخرج من فكرتها أمام ذلك الضوء الجديد الذي أخذ يشعّ من هاتفها المتحرّك الصامت دائماً منبّهاً إيّاها لاتّصال وارد. لقد كانت "إيناس" .. الممرّضة في دار الرعاية، والتي تشاركها بشكل مبهم ذلك السؤال، فهي الوحيدة، التي بادرتْها قبل عدّة أشهر، وهي تتابع زياراتها المستقرّة للأب، بالسؤال عن سرّ العطب الذي أصاب العين الأخرى، كانت مختلفةً عن بقية



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممرّضات اللاتي اعتدنَ أن يسألنَها عن صلة قرابتها بـ "مسلّم"، مع بعض الملاحظات العامّة عن صحّته وذاكرته وهذياته، شعرت بأنها تثق بالرابط الروحي الجديد مع "إيناس" وشراكة السؤال، كانت "إيناس" بدورها تُحادث "مسلّم" الأب في غيابها، علّه يقودهما إلى المكان الدقيق الذي حدث فيه ذلك العطب الملغز، واتّفقتا أن تتشاركا الإجابة، لعلّها قد توصّلت إليه الآن، وتهاتفها، لتبدّد تلك الحَيْرة.

- مرحباً "إيناس".

- أهلاً "ميرة"، نحن نحاول أن ..

- تحاولون ماذا؟

- أن نتواصل مع أحد من أقرباء "مسلّم"، لنستطيع استخراج التصاريح اللازمة .. آسفة لأنني سأطلعكِ على الأمر بهذه الطريقة.

- تصاريح؟! لأجل أيّ أمر؟

- "البقية فحياتك".

- ماذا تعنين؟!

- العمّ "مسلّم".

- هل.....؟!

- رحمه اللّٰه.

شعرتْ بشيء يشبه اللسعة التي تجتاح جسدها كله، أغلقتِ الهاتف، ووضعتْهُ جانباً بيد مرتجفة دون أن تبوح بالأسئلة كلها التي كان لها أن تسألها، لولا تلك اللسعة المرعبة، عن كيف حدث الأمر؟ ومتى؟ ولماذا لم تهاتفها "إيناس" وقت النزع الأخير؟ لماذا لم تدعها تودّعه بما يليق، حتّى وإن لم يتذكّر هو هذا الوجه الذي يقابله ويشدّ على روحه المسافرة كمثل تلويحة، تحاول أن تضبط إيقاع تنفّسها؟ تتلفّتُ حولها، كانت الحَيْرة الآن أكبر بكثير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من مجرّد عين معطوبة .. ماذا تفعل؟ هل تهاتف والدها الغائب لمناقشة موضوع التصاريح، بِعَدِّ أنه لا وجود لأقرباء مباشرين لـ "مسلّم"؟ هل تبكي؟ .. هل تصرخ؟ هل يجب أن تهرع له لتراه؟ شعرتْ بهزال روحي عارمٍ يعتريها .. وجدت نفسها تتّجه نحو المكتبة الصغيرة في غرفتها، تهبط إلى الرّفّ السفلي منها الذي كانت قد وضعت عليه كُتُب "مسلّم" الآخر جميعها، لكي تُبعدها عن مجال النظر، فتّشت عن "عمى" "سارماغو" بأنفاس متصاعدة، فشلت في ضبطها وهي تتساءل عن الإغماضة الكاملة التي يعيشها "مسلّم" الآن، يا ترى ما هو لونها؟ .. أخذت تقرأ سطر الكتاب الأوّل، ثمّ توقّفت عندما أخذ العالم أمامها يغيب خلف غلالة مبهمة .. شهقتْ بمرارة، وهي تظنّ أنها تُصاب بالعمى .. لكنها كانت الدمعة فقط.

## -٢-

يجلس مبتسماً على حافّة فراشه، مبادلاً إيّاه السكون، شابّاً كما عرفه في ذاكرته الأولى، ينتهض الآن، مقترباً منه .. يشعر هو بالعطش، يهمس "ماء" .. لكن "هلال" الذي واصل الاقتراب، لم يبدُ عليه أنه قد سمع الهمس .. حتّى جاور رأسه.

- ماء ..

يمسح "هلال" على رأسهِ بحنو .. يقترب ليلمس العين المصابة، والوجه المتغضّن، يقول دون أن يحرّك شَفَتَيْه في صوتٍ، شعر "مسلّم" بأنه قد سمعه في عقله مباشرة.

- كم نحن متشابهان.

يهمّ "مسلّم" بالرفض، يستنكر هذه العبارة البائسة التي تدينه بقدر ما أدان هو "هلال" طوال حياته .. لكن صوته يبقى بعيداً .. اهتزّ فقط، بهزاله المستفحل وقامته الذاوية، ومرّة أخرى، لم يبدُ على "هلال" أنه قد فهم هذا الرفض، يكوّر يَدَيْه، ويفتحهما، فإذا بكفَّيْه تحملان من الماء ما يتسرّب من بين أصابعه، يذرّها على وجهٍ "مسلّم" الذي تبعثرت القطرات على وجهه، وبالقرب من شَفَتَيْه



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دون أن يبلغ منّا ما يستر عطشه، واصل "هلال" التّأمّل والابتسام، وهو يعود ليمسح بكفّه على رأسه .. قائلاً:

- يتوجّب أن نمضي.

يرتاع "مسلّم" .. لم يرد أن يكون مضيه مع "هلال"، لطالما تخيّل أن ترافقه "خديّة"، لتُبسمل على خوفه أو "إبراهيم" ليشدّ على الوجع بوجههِ الصبور، أو "خاطر" .. أجل "خاطر" لطالما تخيّلَ أن يمنحهُ "خاطر" عيناً سليمةً، تشبه في لونها ألوان عينَيْه الغريبة، أن يهديه متعة أن يشاهد العالم لمرّة كاملة أخيرة .. تمنّى أيضاً أن تواجهه الآن عينا "جواهر" الواسعة، اشتهى أن تكون في مثل هذا اليوم بمثابة غرقه النهائي، لكنها، ومنذ أن غاب "مطر"، بقيت تمرّ على كوابيسه كالعاصفة، تصرخ به .. "لماذا قتلتَني مرَّتَيْن؟ .. مرّة بالحمّى، ومرّةً بـ "مطر"؟" تبتلعه بصوتها وهي تهشّم في كل كابوس، بعضاً من روحه، ليستيقظ وهو يجهش بالبكاء، محاولاً أن يخرج باحثاً عنه، "مطر؟" .. يسطع وجههُ الصغير في الذاكرة كخدش يتوازى مع خدش عينه اليمنى، سرعان ما يغيب، ليحلّ محلّه وجه "سند" .. خطيئته الأبدية، يرتجف، لا زال "هلال" يمسح على رأسه، ويبتسم، كم يودّ أن يبصق على وجهه، لكنه لا يفعل، هو الآن يشعر بالمرارة، بالغصّة، برغبة عارمة بالبكاء، تنفر دمعة .. دمعةٌ يعرفها هذه المرّة جيّداً .. لقد انتظرها طويلاً، الدمعة التي ستُنهي كل شيء، الأخيرة في رصيد الروح، ها هي تسقط .. أو ترتفع .. إذ إنها ما إن نفرت حتّى ارتفعت أمامه ككرة بلّورية صغيرة .. لتمنحه متعة تأمّل أبعادها جميعها وهي تتوهّج بضوء شفيف، راح ينسكب على ملامحه التي راح تغضّنها يتفكّك شيئاً فشيئاً، يغيب الآن الخوف الذي داهمه ما إن رأى "هلال" قبل قليل .. يحلّ محلّه الرضا .. يتنهّد بارتياح .. وتغيبُ الدنيا.

## -٣-

اسطنبول ٢٠١٥

رأى الثلج، ولان قلبه بدلاً من أن يتجمّد، وللمرّة الأولى يكتشف أن



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للانهمار معنىً آخر، يتجاوز ميوعة اسمه، التفت مرتبكاً خوفاً من أن يلاحظ "معتصم" الدمعة التي سالت وهو يمدّ اليَدَيْن المرتجفَتَيْن محاولاً أن يمسك بالندف التي أخذت تنهال أمامه، مشهد مرتبك آخر يطلّ من مكان مَنسيّ، وهو يمدّ لسانه، ليتذوّق قطرات المطر، هل يشبه ذلك الماء السماوي الآخر الأرضي؟ سؤال كان يتبادله مع "ميرة" قبل أن يهزّا أكتافهما الصغيرة بـ "الربّما" .. "الربّما" التي كانت تتضخّم في فضائهما الحيوي كبالونات ملوّنة، يتابعانها تُحلِّق في السماء البعيدة، وينتشيان.

تُجفله يدٌ، حطّت على كتفه في شيء من الحزم:

- حان الوقت.

بقي جامداً لعدّة ثوان، لكأنه يريد أن يخرج من جسد الصغير الذي يمدّ لسانه، ليتذوّق المطر عائداً إلى هذا الجسد الآني، رأى الصغير يُغلق فمه فجأة، ويلتفت إليه بحَيْرة، في شيء من الصدمة، و"ميرة" تقترب منه، لتُمسك بكتفه، وتهزّه، ليفيق من حالة الذهول تلك، رأى الصغير مرّة أخرى محتقن الوجه، لكأنه ابتلع لسانه، وغصّ به، رأى السائل الذي احتشد في العينَيْن، وقبل أن يُدرك الأمر، انفجرت عينا الصغير أمامه في تهشّم يقابل تحطّم الزجاج البلّوري الرقيق، شهق مرتاعاً، وهو يغلق عينَيْه بقوّة، لكأن حالة التّهشّم تلك ستنتقل حتماً إليه هو في هذا الجسد الكبير.

- "مطر"، "شو عم بيصيرلَكْ؟!"

امتدّت القبضة الحازمة التي لكزت كتفه إلى نبرة صوت محدّثه، ممّا أخرجه من جموده والصدمة بشكل مؤكّد هذه المرّة، استدار بجسده مواجهاً "معتصم" الذي يفوقه طولاً ببضعة سنتميترات، وراوده السؤال المعتاد ذاته، كلّما كان قريباً من "معتصم" إلى هذه الدرجة .. ما لون عينَيْه؟ لماذا يشعر أنهما تتبدّلان في كل مرّة يحدّق بهما إليه؟ هل هو تغيُّر حالته المزاجية؟ هل تتبدّل العيون الملوّنة بحسب الحالة المزاجية لأصحابها، تماماً كما كانت تتبدّل ألوان بحر الساحل، بحسب الحالة المزاجية للسموات التي كان يعكسها؟ يتذكّر كم هاله ذلك الأزرق العميق المتوهّج للبسفور

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما وصل للمدينة قبل أربعة أشهر .. توهّجٌ يوازي ما تكشفه عينا "معتصم" الحازمتان الآن، والتي سيتغيّر لونهما، ليبهت بالتدريج، وهو يميل عليه هامساً.

- هل لا زلتَ تريد أن تنتقم؟

كرّر "معتصم" السؤال ذاته للمرّة العاشرة ربّما منذ أن سأله إيّاه قبل سنة من الآن تقريباً، شعر "مطر" بلفح أنفاس "معتصم" المتحفّزة.

- نعم، لا زلتُ.

قالها مرتبكاً، وهو يحاول أن يعالج استعاراً متناقضاً، كان يشتعل بداخله باستمرار، كلّما كان قريباً من "معتصم" إلى ما يقارب الالتصاق، كيف له أن يهيم بشيء، ويمقته إلى هذه الدرجة؟ كيف تتشابك الرغبة المتّقدة والغثيان معاً مراوحَيْن بين المرّة الأولى التي شعر فيها بانتهاك الجسد هناك في تلك الغرفة القذرة المريعة والمرّات التي تلت ذلك مع "معتصم" متأرجحاً بين الخطأ والخطيئة محاولاً أن يكتشف ما هو الأمر الذي سيجعله يحصل أخيراً على تلك الاستكانة، يدفعه غضب هائل، يجعله يؤمن فعلاً بأن الانتقام الحقيقي هو ذلك الذي صوّره له "معتصم" بتفاصيله المتفجّرة التي حكاها له قبل سنة، وبعد سنة أخرى من تعارفهما في أثناء بحثه العشوائي عن ذلك الآسيوي؟

- جيّد.

يهمس له "معتصم" قبل أن يطبع قبلة على أذنَيْه بحنو، تلاها تبدّلٌ مفاجئ في لون عينَيْه ونبرة صوته وتصرّفاته .. ابتعد عن "مطر" وهو يتنقّل في شيء أقرب للعصبية متفقّداً أجزاء الشّقّة الصغيرة جميعها.

- لا يجب أن نترك أبداً ما يُدلّل على أننا كنّا هنا.

تأمّله "مطر" وهو يتحرّك في غرفة المعيشة التي لم تحمل وجود أكثر من كنبة بائسة وغرفة نوم بفراش أرضي، كانا قد غسلاه



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالأمس، وطوياه بعناية، وحمّام صغير، تأكّدا من أن ينتزعا منه أيّ دليل على وجود مَن استخدمه منهم، ومطبخ تخلّصَا من كل ما كدّساه فيه من أطعمه بعد أن ظنّا أن فترتهم الانتقالية في هذه الشّقّة وهذه المدينة التي سبقهم إليها كُثُر قد تطول قبل أن يأتيهم أمر الانضمام للرفاق في المكان المبارك .. تأمّل قامة "معتصم" الفارغة ولون بشرته الفاتح المشوب بسمرة خافتة، قد يكون اكتسبها من هناك أو من الآسيويّيْن الكُثُر الذين خالطهم قبل أن يتعثّر بـ "مطر" الذي كان شاهداً على طرده من أحد المنازل العمّاليّة بعد أن أدركوا بأنه ليس واحداً منهم.

- خذْ، اترك هذا المبلغ معكَ .. وهذه أيضاً هويّتكَ الجديدة.

توقّفت أفكاره المتدفّقة وهو يأخذ المبلغ من "معتصم" .. بالدولار هذه المرّة، عملة ثالثة بعد الدرهم والليرة التركية. تناول المبلغ بتسليم، ودسّه في جيبه، فيما راح يتأمّل الهوية التي جعلته يحمل اسم "عمر" .. لقد توقّف عن سؤال "معتصم" منذ فترة عن أمرَيْن: أوّلهما عمره بالضبط، وثانيهما من أين له بتلك الأموال والأوراق الثبوتية كلها التي منحتهما في كل مرّة اسماً مختلفاً، هو الذي عرف عنه أوّل ما عرف أنه لم يكن إلا عامل بناء مغترباً في أحيان، ومندوباً لتوصيل الطلبات في أحيان أخرى، يعيل أسرته التي لم يبقَ له أحد منها اليوم .. كان يكرّر له دائماً بعد نوبات انهيار مرتبطة بمصير عائلته الشامية "بأنه وحده كل ما بقي له"، وبأنه لن يسمح له أبداً بالابتعاد عنه، وبأنهما معاً، سيُحقّقان انتقامهما الذي لطالما أراداه للوصول إلى الرضا .. ضعيفان في غضبها الهادر قويان فيما يربط بينهما من شراكة ومودّة غامضة، لا يملك أيّ منهما أن يدينها بشكل حاسم أو يقبلها قطعياً أيضاً.

- لنغادر .

قالها "معتصم" مستعيداً حزمه وهو يفتح الباب، اقترب منه "مطر" بحذر، وأمسك بكفّه، ليخرجا معاً، الأمر الذي تملّص منه "معتصم" في شيء من الحزم والغضب .. وهو يتجاوزه متقدّماً



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إيّاه ..

- لا يمكنكَ أن تتعامل معي هكذا بعد الآن .. أعني أمامهم .. أنتَ تفهم .. أليس كذلك؟

لم يفهم "مطر" أو في الحقيقة لم يرد أن يفهم ما الذي يعنيه هذا كله فجأة، شعر بالغثيان الآن يتفوّق على الرغبة .. لكنه بقي يتبع "معتصم" كالمرتبط به بسلسلة غير مَرئية، كان ابتعاده عنه يعني عودته للضياع، العودة لفكرة الانتقام المربِكة التي لم يعرف كيف يُمنهجها في ظلّ يأسه من العثور على الهدف المنشود، لم يعرف إلى الآن كيف جعله "معتصم"يشاركه الإيمان العميق بأن للانتقام دماً واحداً ووجوهاً كثيرة، لكنه بقي متردّداً أمام التفاصيل الكثيرة التي يتوجّب عليهم التّجذّر فيها قبل أن يصلا إلى هدفهم المنشود، أخبره "معتصم" منذ أن وصلا إلى هنا بأن عليهما التّعوّد على أداء الصلوات الخمس في وقتها، وأن يُطلقا اللحى، هناك لا تسامح في مثل هذا الأمر، لكي يثقوا بكَ، لكي يضعوكَ في صفوفهم الأمامية، لكي تصل إلى انتقامكَ متلذّذاً به، عليكَ أن تبدو مثلهم ما استطعتَ، إنّ تفصيلاً صغيراً قد تنساه يكلّفكَ حياتكَ.

يتذكّر الليلة التي عاد فيها ليجرّب الوضوء من جديد، رأى فيما يشبه الحلم "مسلّم" والده يتقدّمه إلى مكان الوضوء في المسجد المقارب لسكنهما، قام بالحركات ذاتها التي قام بها وهو يعلّمه الوضوء أوّل مرّة قبل سنوات طويلة، بآليّة وصمت، لم يشرح له رمزية أيّ فعل منهم، اكتفى بأن أمره بأن يكرّر ما يفعل، إن هو أراد الصلاة، انتبه ليلتها أن "مسلّم" لم يأمره بأيّ شيء من الفرائض قسراً .. كان دائماً يقول له إن أردتَ .. لو أحببتَ .. لكأنه يضع أمامه الشّكّ قبل اليقين، لكأنه لم يكن متأكّداً من أن ذلك هو الخيار الوحيد فعلاً، يتذكّر بشكل مباغت الآن المرّة التي أمسك به يدخّن في حمّام البيت القديم، وأنه لم يظهر أيّ رد فعل يشبه ردود أفعال آباء أقرانه، من سخط وعنف، لقد اكتفى بأن نبّهه إلى أنه إذ أحبّ التدخين، فعليه أن يدخّن خارج الغرف، لكي لا يتكرّر خطأ "هلال" الذي كان يسمع باسمه للمرّة الأولى في زمنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذاك،والآن ها هو يشعر بغضبه تجاه "مسلّم" يلتهب من جديد، الوالد صاحب العين المعطوبة، الهشّ الصامت المتخاذل الذي لم يكن له أن يحميه أبداً، لا من سخرية صِبْيَة الحَيّ، ولا الصغار في المدرسة، ولا من السجائر التي ستدمّر رئَتَيْه، ولا من ذلك الانتهاك .. ولا من التّردّد الذي سيلازمه للأبد .. تردُّد يجعل قلبه ينبض في وقع مُدوٍّ، وهو ينتظر مع "معتصم" المركبة التي ستقلّهما إلى مصيرهما الجديد، يودّ الآن لو يستطيع أن يتقيّأ حَيْرته .. أغمض عينَيْه بقوّة محاولاً أن يتجاهل الغثيان العارم واللفح البارد والثلج الذي شعر بندفه التي أدهشته قبل قليل تبدو كتناثر هشيم عينَيْه الصغيرتَيْن بعد انفجارهما.

- هيّا .. أسرع.

يصيح به "معتصم" وهو يأمره بأن يضع حقيبه حاجيّاته بدوره في صندوق السّيّارة، لينطلق بهم السائق الذي بدا على وجهه التّوتّر والضيق معاً، ومن نافذة المركبة المغادرة بهما شاهد "ميرة" الصغيرة، وهي تسدّ الفراغات التي خلفها انفجار عينَي "مطر" الصغير بكرتَيْن من الثلج، وتبكي.

## -٤-

دبي ٢٠١٧

لا يكاد أحدٌ ينتبه للبالون المعلّق في السقف العالي، ذلك الحائر المختنق، يتمنّى لو أن يرتفع رأس ما ليلمحه، أن يشتهيه طفلٌ، فيفعل المستحيل، لكي يظفر به، هو المَنسيّ منذ أن تمرّد وقرّر الهرب من يدِ طفلٍ سابق، أملاً في أن تواجهه السماء الحُرّة، فكان أن صدّه هذا السطح الزجاجي البارد على بعد بضعة سينتمرات من الوصول، لكنْ، لا أحد يرفع رأسه هنا، رؤوسهم مدفونة في شاشات من الأحجام كلها على الأغلب، أو زائغة ملتفتة نحو الواجهات المبهرجة التي تأتي بالعالم إليهم على هيئة حقيبة أو حذاء أو وجبة ما .. وفي أحسن الأحوال، كان المحظوظون منهم بعض الشيء، هم أولئك الذين يأتون للظفر بموعد، بين عمل



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجعل فكرة أن ترفع رأسكَ ضياعاً محتملة، وبين موعد حبّ، يجعلُ وجه المحبوبِ المواجه هو نقطة الارتكاز الوحيدة بين الجموع .. أحاول أن أرسم جزءاً من نظرة تلك الأمّ الزائغة، وهي تتابع بقلق طفلها حديث المشي وهو يتحرّك في لعب حُرّ محدود بالقرب منها، لكن كل ما حولي يجعل تركيزي قاصراً، شالٌ فاقع، كلمة غريبة المعنى، عينان تلتقيان لبرهة في ارتباك، ابتساماتٌ مبتورة وضحكات عالية وأخرى مقتضبة، أتوقّف عن الرسم متابعةً الألوان والأشكال وتنوّع الألسنة، كل شيء يمضي على عجل، جميعهم كالمسافرين في المطارات رغم أنهم في مركز تسوّق، لاهثون باتّجاه شيء ما بين انشغالٍ وآخر .. أجدني أفكّر .. هل يطرحون الأسئلة حول ما يعبر بهم أو يعبرون من خلاله، هل هي حيواتٌ كاملةٌ أم استعارات؟ يسطع ببالي صوت "مسلّم" الآخر .. يتماهى باللحظة الآنية، ونحن نخوض ذلك الحوار القديم عن النصوص المقدّسة.

- لو لم يكن النّصّ المقدّس إشكالياً، لما توالدت هذه التفسيرات المتنوّعة، إن شيئاً ما في ذلك كله، على الرغم من أن أكثر من حاول أن يفسّر النصوص فعل ذلك بِنِيّة إيجاد اليقين الخالص القابل للتلقين، فتح بوابة للسؤال، تفضي إلى امتداد محاولات إيجاد الأجوبة، النّصّ المقدّس موجود، ليُكمل فينا دورة الأسئلة، لا لكي نركن لبلادة الذهن.

- يبدو أنه دورك اليوم لتُصيبني بالصداع، يا "مسلّم"، لكنني وبعيداً عن النّصّ المقدّس، ومنذ وعيي بخدش "مسلّم" الأب وأنا أسأل، تبقى الأسئلة تتّسع بشكل عشوائي دون أن ترسم لي طريقاً معيّناً .. الأسئلة تتفجّر والأجابات لا تأتي على هيئة معيّنة، إنها تضيق فقط.

- "ربّما كان البحثُ عن المعنى هو المعنى ذاته"(11).

- استعارة أخرى من استعاراتكِ.

- أجل، ما عنيتُهُ هنا قد يقارب ما توصّل إليه "غوتهولد ليسينغ" لقد كان يرى أن حقيقة العالم الكبرى تكمن فى لا نهائية الآراء



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والأسئلة، ممّا يتطلّب المزيد من الحوارات بين بني البشر، وهذه هـي القيمـة اسـتمرار الخطـاب بـين النـاس، إنـها ذروة التواجـد الإنساني.

- .....

- لماذا الصمت؟

- " في قلّة الكلام تناغمٌ مع الطبيعة، الطبيعةُ لا تعبّر عن نفسها بالكلمات"(12).

- ها قد بدأنا ..

- ماذا؟

- لعبة الاستعارات .. أراكِ تجارينها معي الآن، يا قطّة.

يقطع الصوت الرفيع بقربي تلك الذاكرة ..

- ماما .. انظري بالون.

انتبه للورقة التي بين يَدَيْه الآن وهو يجاورني في المقهى، لقد حاكاني في محاولة الرسم بما أمامه من أورق وأقلام، لقد رآه، إذنْ، وقرّر أن يرسمه، لكنْ، كيف لمْ ألمحْ أنه يرفعُ رأسه..؟ هل أصبحتُ جزءاً ممّنْ كنتُ أراقبهم وأنا أعزل نفسي عنهم؟ يبدو أنه ترفٌ، لا يمكنكَ أن تتحصّل عليه في مُدُن الألفية، أن لا تكون جزءاً، أن لا تحتفظ بوجهٍ مميّز، بعادة خاصّة، بروحٍ لا تبدو مستنسخة عن كل ما حولها، يقترب "جيلبرت" الآن، تسرقني فكرة أخرى، "لجيلبرت " وجهٌ طفولي مميّز وصوت ومشية وروح، رغم أنه نتاج مدينة من تلك المُدُن، لا يهمّ إن كانت لندن أو باريس أو نيويورك أو ريو دي جانيرو أو دبي .. كيف له أن يستمرّ بالحفاظ على ذلك؟

- أظنّ أنني انتهيتُ لليوم.

- حسناً.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعالج نظرتي الشاردة، ونلتفت للصغير في الوقت ذاته، الصغير في عامه الرابع، والذي يشبهنا معاً بشكل غريب رغم تناقض ما يجمعنا من صفات ظاهرية، ففي حين احتفظ بلون عيون "جيلبرت" الملوّنة، جاء بسحنة قمحية فظّة، تجعل من توهُّج العينَيْن يبدو أحياناً مبالغاً فيه، له لون شَعْر "جيلبرت" ونظرتي الشاردة وابتسامتي كما تقول أمّي، ويحدث أحياناً أن يتأمّله أبي، ليقول بأن "يعقوب" أو "جايكوب" هو طفلٌ أجنبيّ خالصٌ، لولا ذلك الأنف الذي يشبه أنف والده جدّي .. يقوده "جيلبرت" أمامي الآن، ونحن نتوجّه للمركبة، بعد أن انتهى من جولة تصوير جديدة، كان يحاول من خلالها أن يخلق بُعْداً زمنياً لنُمُوّ هذه المدينة الإنساني في مختلف الأماكن الفارهة والمتواضعة، بدأ مشروعه خلال إجازتنا القصيرة في عامه الماضي، وقسّمه على سنوات خمس، ستنتهي بعرض المشروع في معرض، أشاركه فيه بما حاولتُ التقاطه من ملامح بعثرة، أرسمها هنا وهناك، مشروع لصالح المؤسّسة الفنّيّة التي التحقتُ للعمل فيها مؤخّراً معه، أتذكّر زيارته الأولى لـ "دبي" قبل سنواتٍ خمس وهو يقول إنه لم يتخيّل أن يزور هذه المدينة، تُرعبه الضخامة المباغته في مُدُن الخليج، بقي متجنّباً إيّاها، حتّى أصبح موضوع مقابلته لوالديّ أمراً حتمياً. أسأل نفسي كثيراً .. كيفَ حدث هذا؟! تطوف ببالي ذاكرة الاختناق، "مسلّم الأب" وهو يدفن معه لغز الخدش الذي لم يعد مهمّاً بقدر ما كانت تهمّني رفقته الروحية، و"مسلّم" الآخر وأنا أُعيده إلى العدم، شعوري بأن المدينة التي أحببتُ، مدينة الساحل المترفّع والوداعة الدائمة تضيق حتّى تكاد أن تصبحَ قبراً، أبلغ والـدَيّ برغبتي بمواصلة الماجستير في الخارج، لقد أحببتُ "باريس" أريد أن أقضي فيها المزيد من الوقت، أردتُ هرباً مؤقّتاً؛ يعيد لي التوازن، أو لعلّي كنتُ أريد تأثيث ضياعٍ خاصّ، يأخذني من ذلك الضياع القسري، تحاول أمّي أن تثني فيّ القرار، أُصرّ، أغادر، وأنا أترك هاتفي القديم مغلقاً كباب صدئ أمام محاولات "مسلّم" الآخر بإعادة التواصل لاستئناف تلك اللعبة العبثية، ألتقي "بجيلبرت" يتحول ذلك النفور القديم إلى اشتعال، لا أذكر كثيراً من التفاصيل، لكنني أذكر القرار المصيري الذي كان عليه أن



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتّخذه، لكي لا يتحوّل ذلك الاشتعال إلى انفجار عظيم، يحصدنا معاً، يوم أشهر إسلامه امتثالاً لرغبة والدي، وإن كان الأمر فقط بمثابة الإشهار على الورق، كنتُ أعلم أنه بذلك قد قدّم القربان الأخير، وأن اللعنة لن تحلّ كما يقول الناس ومنهم أبي وأمّي. علّق أسئلته، واستسلم. علّقتُ نظرتي الشاردة على قلبه، وتمّ ذلك الزواج المقتضب بدون مراسيم كبيرة، أسرتان تحتفلان بالزفاف في منزلهم الصغير هناك في العاصمة باريس بعد توثيق له في المحكمة المدنيّة، ودعوة لعشاء أعدّها رجل الأعمال على شرف زفاف ابنته هنا في الشارقة بعد عقد قران، تمّ وفق الشريعة الإسلامية .. و"مبروك" المدهشة التي أرسلها لي "مسلّم" الآخر على هاتفي الجديد، لكأنه يقول لي إنه لا زال حاضراً في غيابه، هو الذي يغيب ولا يغيب، وهو الذي يعرف كل شيء دون أن يُطلعني على سرّ تلك المعرفة الدقيقة يوماً، معرفة لم تعد تهمّني، ما دام قد فشل في معرفة سرّ خدش "مسلّم الأب" الذي يلوح في الذاكرة هو الآخر بين حضور مرتبِك وغيابٍ متيقّظ في السؤال الذي تركه خلفه، أعود للمدينة دائماً، لأجدها تُحيّيني بامتنان، وأبادلها الامتنان ذاته، بترحابٍ مهادنٍ، يتعاظم في كل مرّة، يجعلني أعود لأُبصر الخدش بعيداً كندبة تؤكّد على هوية صاحبها، بدلاً من أن تُشوّهه، أجدني أسأل نفسي في كل مرّة وأنا أمامها .. عن السبب الحقيقي الذي جعلني أهرب منها قبل سنوات، بتلك الضغينة الخاملة كلها، لأوزّعني على مدينَتَيْن، مدينة يُربكني ساحلها المهادن، بكمٍّ مبهمٍ من الحنين الطافح، حنين لا أعرف المقصود منه أو فيه، لا يشبهني وأنا أوزّع الانتماءات على الأشياء والوجوه والألوان والأصوات بعيداً عن الجغرافيا، حنين يروّضني، يُنضِجني. في الإجازات القصيرة هنا، نقيم في منزل العائلة، فيلا أخرى كبيرة، تجعلني أتساءل، عمّا يفعله شخصان فقط: هما أبي وأمّي بها، تقول أمّي بأنها مُعدّة لعودتي أنا وأحفادها المفترَضين، أشقّاء وشقيقات "يعقوب" الصغير، أسألها .. "هل نعود وحدنا أم مع والدهم؟" .. تضحك في حرج .. وابتسم، نتّجه عائدين إليهم في الشارقة .. يواصل "جيلبرت" في المركبة، متابعة التفاصيل حوله، رغم ظاهرها



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصمت، يحدِّثني عن سرعة ما يبرز من المباني هنا وهناك، لم تكن موجودة قبل شهرَيْن .. يدير مذياع المركبة، ونرهف مستمعين بقلق، كل بوادر انفجار أو اضطراب أو هجوم تجعلنا نضع يدنا على قلوبنا خشية أن تكون المدينة هي باريس أو نيس أو غيرها من المُدُن الفرنسية، كما كان هو الحال في العام الماضي، ويضع هو يدهُ على قلبهِ بشكلٍ أكبر أمام ما تشهده تطوّرات الانتخابات الرئاسية هناك، صعود اليمين الفرنسي المتطرّف، يعني أن يُقضى عليه، هو "المسلّم" الطارئ، أن يقضى على الفكرة اللطيفة التي جمعت بين اختلافَيْن .. لقد بات العالم يرى بأن الكراهية هي الحلّ على ما يبدو .. أشعر بالغصّة، لكنني أمازحه:

- تقولُ أمّي بأن البيت هنا مُعدّ، ليتّسع لنا جميعاً.

يضحك في توتّر، وأغالب القلق بنظرة تجاه "يعقوب" الذي غفا في كرسيه الخلفي .. نصل إلى المنزل أخيراً، أجد أبي وأمّي بالداخل، وقد تسمّرا أمام الشاشة الكبيرة بذهول .. أعرف جيّداً أن أمّي لا تعير انتباهاً لمثل هذه التفاصيل، لكنها تتابع الآن تقريراً متلفزاً عن عملية، نفّذتْها إحدى الجماعات المتطرّفة في "العراق"، يأتيني صوت "مسلّم" الآخر من الذاكرة البعيدة وهو يُحوِّر العبارة "أصيح، يا عراق"، أسألهم ما الأمر؟! يلتفتان تجاهي بالذهول ذاته، ويدعونني للاقتراب، فيما يقف خلفي "جيلبرت" حائراً، وهو يحمل "يعقوب" النائم، أحاول أن ألتقط ما تبثّه الشاشة بتركيز، كانت القناة الإخبارية تعرض الآن تهديداً متلفزاً، يوجّهه رجلٌ ملتحٍ، يجلس بترفّع وحزم على كرسي وافر، يبلغنا بإمكانية وصولهم إلى المناطق المجاورة، لإشعالها حتّى ترتدع، كما هو معتادٌ منهم، فيما اصطفّ خلفه شبابٌ ملتحون بدورهم .. خمسة منهم .. ببنادقهم وملابسهم السوداء، كان ثالثهم هو .. هل هو أمامنا حقّاً؟ .. وجدتني أشهق، وأنا أقترب من الشاشة أكثر حتّى كدتُ أن ألتصق بها، أنا أعرف هذا الوجه .. أعرفه جيّداً، وإن كان معفّراً الآن، وملتحياً وفاقداً لوداعته القديمة، شيءٌ ما يبدو رغم كلّ ما أحاط به يظهر بأن السنوات لم تكد تمنح سحنته ذلك



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النضج اللازم، وإلا لما عرفه أبواي بدورهما، لكن أكثر ما أكّد لي أنه هو هي تلك العين التي تظهر حائرة بشرود، تلك التي تشبه في نظرتها نظرتي، إلا أنها اليوم لم تكشف عن نظرة كاملة، لقد كان هو فعلاً ذاته، لولا الخدش الذي أغلق عينه اليسرى، أمامنا "مطر" بكامل هشاشته والغرابة والتّوحّش، وهو يرث عن "مسلّم" الأب ذلك الخدش في العين اليسرى بدلاً من العين اليمنى.

لم ينتهِ الأمر، إذنْ

لا يزال السؤال معلّقاً!

تتحوّل دهشتي إلى رغبة متفجّرة بالضحك، كنتُ لا أعلم ما الذي جعلني ألتفت نحو أبي وأنا أشير لـ "مطر" الجديد على الشاشة قائلةً له، وأنا أستعدّ لموجةٍ من الضحك الهستيري.

- لعلّها مزحة!

11) فراس السّوّاح – باحث سوري.

12) لاوتسو – فيلسوف صيني.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner